

دار الشروق

اندهش يا صديقي

عبد الوهاب مطاوع



اندهش يا صديقي

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

الطبعة الثانية
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الطبعة الثالثة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد العظم عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيدي بويه المصري -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

عبد الوهاب مطاوع

اندهش يا صديقي

دار الشروق

... ولا تتبع خطواتى !

لا تتوقع منى شيئا مفيدا فى مقال هذا الشهر^(١).

تقول ومتى كان فيه شىء مفيد ؟ قفشة ظريفة لكن لا يهم فالمشكلة هى ان كل انسان يتصور انه يؤدي دائما مهام جلية للانسانية . . وهذا التصور مفيد للحياة لانه يخلق فينا الحماس . . . والحماس ضروري جدا لاستمرار الحياة . . . فخذ منى هذه النصيحة واقتنع تماما بأنك تؤدي مهام جلية للانسانية وللحياة كل يوم ولو بكلمة طيبة . . . ولوريتة على كتف انسان ، وعلى هذا الأساس اعتذرت اليك بأن مقالى لن يكون مفيدا كما اتصور لأن الوقت قد سرقنى فى اعداد مواد مجلة الشباب فلم تتح لى الفرصة الكافية للتفكير والدراسة قبل ان اجلس لكتابته . . . ومشكلتى مع الوقت قديمة جدا فهو اكبر لص فى حياتى . . وانا وهو عدوان لدودان منذ طفولتى . . . ودائما احس بأنى مطالب بأن أفعل أشياء كثيرة لا يتسع لها وقتى فألثت دائما للقيام بها وأتأخر كثيرا عن الموعد الملائم لها . . . فاذا شكوت لك من ذلك فانى أشكو اليك بمنطق الحكيم الذى سئل مرة ممن تعلمت الادب فأجاب : من شخص سبىء الادب . . . فكنت كلما رأيت منه شيئا لا يعجبني اجتنبت ان افعله فى حياتى !

أو بالمنطق الذى عناه الشاعر الألماني جوته حين كتب قصيدة على لسان بطل روايته المأساوية آلام فرتر يقول فيها : كن رجلا . . . ولا تتبع خطواتى ! يقصد بذلك ان يحارب موجة الانتحار التى انتشرت بين بعض الشباب الذين حاولوا الانتحار لفشلهم فى الحب تقليدا لما فعله فرتر فى روايته الحزينة وبهذا المنطق اشكو

(١) لمجلة الشباب التى أراس تحريرها .

اليك نفسى وعجزى عن تنظيم وقتى فأنا بكل أسف من هؤلاء الذين لا يركبون القطار الا وهو يتحرك دائما . . . أى أنى أصل غالبا الى موعدى . . . والى العمل المطلوب منى فى اللحظة الأخيرة وأحيانا بعدها وهى آفة كلفتنى الكثير فى مراحل عمرى . . . وهذا دليل اكيد على أنى لست ممن يرجون لانفسهم شأنا كبيرا فى الحياة ، فكل الذين نفذوا ما خططوا له فى حياتهم كانوا غالبا ممن يحترمون الوقت ويحيدون تنظيمه ويحافظون على دقة مواعيدهم وأشهر مثال معاصر على ذلك هو عميد الرواية العربية الاستاذ نجيب محفوظ الذى ينظم وقته تنظيماً دقيقاً دقيقاً حتى كتب عنه الكاتب الساخر الراحل محمد عفيفي انه «رجل الساعة» ساعة اليد التى تتحكم فى حياته بنظام حديدى . . . لا ساعة الزمن أما الأمثلة الأخرى فكثيرة . . . ومن أشهرها الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانت ١٧٥٤ - ١٨٠٤ ، الذى كان ظرفاء مدينته الصغيرة كونجزبرج يضبطون ساعتهم على الساعة الثالثة والنصف اذا رأوه يغادر بيته لنزهة العصر ١ ومنهم كذلك الفيلسوف الألماني شوبنهاور الذى التزم طوال الـ ٢٧ سنة الأخيرة ببرنامج يومى محدد بالدقيقة والثانية يتضمن فقرة ثابتة هى سب صاحبة البيت الذى يقيم فيه لمدة دقيقة واحدة كل يوم!

ورغم ان الساعات لم تكن قد اخترعت بعد فقد كان عظماء المسلمين يجيدون تنظيم وقتهم على اساس مواقيت الصلاة فيبدأون يومهم عقب صلاة الفجر ويستريحون عقب صلاة الظهر . . . وينامون بعد العشاء بقليل ويتسع وقتهم لما أرادوه .

والخليفة العظيم عمر بن الخطاب وجده ابنه يوما يغفو قليلا عقب صلاة الظهر فقال له : أتنام واصحاب الحوائج راكدون بيباك ! فأجابه الرجل الحكيم قائلا : يا بنى ان نفسى مطبئى . . . فان جهدها قطعناها ومن قطع المطية لم يبلغ الغاية !

والعقاد كان من ائمة احترام الوقت والحرص على دقة المواعيد . . . وكان من

عادته اذا أعطى شخصا موعدا في الخامسة مساء في بيته ان يدخل الى الصالون قبل الخامسة . . فإذا مضت ٥ دقائق بعد الخامسة غادر الصالون الى غرفة مكتبه ورفض استقبال ضيفه اذا جاء !

والحمد لله أنه ليس في اصدقائي أحد في دقة العقاد وإلا لما استقبلني أحد . . .
فأنا دائما راكب اللحظة الأخيرة والضيف المتأخر عن مواعده والمتعثر دائما في خجله من الداعي . والاصدقاء يتساحون اما الغرباء فليس لديهم ما يبرر لهم هذا التسامح . . . وأحد هؤلاء الغرباء كان طيار احدى الطائرات الفرنسية التي كان على أن أركبها الى باريس ذات مرة . فوصلت الى صالة المطار بعد أن ركب جميع الركاب و«لعل» اسمي في ميكرفون المطار عدة مرات يدعوني للركوب قبل اغلاق الباب . . . وركضت وراء المضيئة الارضية الى الطائرة فاذا ببابها يتحرك ببطء لينغلق من الداخل فاصططحتني المضيئة الى حيث تقف ويرانا الطيار من كابيته ونشير اليه بفتح الباب لأدخل . . . فوقفنا ورآنا . . . وأشرنا . . . فأشار لي باصبعه . . . لا وكررنا الاشارة . . . فكرر الاشارة باصبعه ولا فكرهت اصبعه هذه كثيرا وقتها ولكني لم أغضب منه فأنا المخطيء . . . وليس هو . . . حتى ولو ظلت الطائرة بعدها واقفة في مكانها عشر دقائق كانت كافية لدخولي ودخول عشرات غيري لو أراد لكنها دقة المواعيد التي اعانى من انيميا مزمنة فيها !

ولن أروى لك عن عشرات المواقف المحرجة المماثلة . . . ولن أروى لك حكاية موعدي مع احد وزراء الزراعة الذي وصلت اليه متأخرا بعض الشيء وكان زميلا لي قد سبقني لمقابلته واعتذر عني بمرض ألم بي فجأة فما أن دخلت متعثرا حتى بادرنى الوزير بالسؤال عن صحتي فاجبته بسذاجه انها على ما يرام ولم التفت للون الأحمر الذي غطى وجه زميل !

ولا عن الافراح التي ذهبت اليها وكل اصرار على ان اؤدى واجب المجاملة لزملاء او اصدقاء او معارف . . . فلم اجد العريس ولا العروس لانها انصرفا في سلام الى شهر العسل ولا عن الرحلة الخائبة التي قمت بها في الليل بعد يوم عمل

شديد الارهاق من القاهرة الى الاسماعيلية لاجامل زميلا شابا دعانى الى
فوصلت الى الشارع الذى يقع فيه النادى وسيارة العروسين تغادره فرأى
يربانى . . . وضاع تعبى هدرا واستدرت بالسيارة وعدت للقاهرة وأنا اتدا
الاجهاد .

والغريب انى لا اتعمد أبدا عدم احترام موعد او ارتباط لكنى مطا
بجبال من المهام والأعمال والارتباطات ، والدرس الوحيد الذى تعلمته .
هو اننى اذا فكرت فى حجم المطلوب منى واستهولته فلن انجز منه شيئا
داعى للتفكير ولأبدا بما هو مطلوب عاجلا - ثم بما بعده ثم بما بعده لأنه لا
لانجاز أى عمل الا بأن تبدأ فيه وكأنه العمل الوحيد المطلوب منك . .
اشتغلت بعملين فى وقت واحد فلن تنجز الاثنين . . . ولن تحسن أيهما . . .
بد دائما من البداية . . . ولا بد من الاستغراق فيما اؤديه كأنه العمل ا
المطلوب منى لكى احسنه . . . ثم فليكن من أمرى بعد ذلك ما يكون و
بدأت كل متاعبى مع الوقت والمواعيد لكنه لا يأس مع الحياة . . . فأنا
ثلاثين سنة على تنظيم وقتى بدقة شديدة والالتزام الدقيق بالمواعيد . . . و
«عازما» حتى الآن رغم بعض المحبطات الصغيرة واهنىء نفسى على كل
احرزه على الوقت وعلى كل عمل انجح فى اتمامه فى مواعيد . . . وعلى كل
أقى به ولو متأخرا قليلا عن الموعد المناسب .

ومن المرات التى هنأت نفسى فيها على نجاحى فى الوفاء بوعده التزه
كانت حين دعانى منذ سنوات قليلة صديقى الفنان يونس شلبى لحضو
زفافه فى فندق هيلتون . . . وكان لسوء حظى فى يوم سهرتى الاسبوعية
الاهرام التى اشرف فيها على اصدار الطبعتين الثانية والثالثة منه ، ولا اغا
الا عند الثالثة صباحا فى قمة الارهاق . . . لكن لا يهم فالفرح مستمر حتى
والمهم هو ان يرانى الداعى وان اهنته . . . وهكذا توجهت الى الفندق بعا
وما ان دخلت قاعة الفرع حتى ظننت انى اخطأت العنوان ودخلت ساح

سيدنا الحسين . . . فالقاعة التى تتسع لألف مدعو انحشر فيها ثلاثة آلاف على الأقل وليس هناك موضع لقدم ولا لمرور انسان وفكرت فى العودة لكن هل يضيع تعبى هدرا . . . قررت ان اؤدى الواجب للنهائية . . . وكافحت للمرور بين اكдاس البشر ووصلت الى الكوشة بعد عذاب وبهذلة . . . ونهض العريس لاستقبالي وتعانقنا وهنأته وقدمنى لعروسه وتحدثنا ٥ دقائق ثم استأذنت للانسحاب فأكد ضرورة البقاء حتى نهاية الحفل ووعدته . . . ونزلت اخوض فى الزحام مرة أخرى ووجدت نفسى قريبا من الباب فأسرعت بالخروج مهتئا نفسى على قوة ارادتى . . . وعلى نجاحى المبذئ فى عملية تنظيم وقتى بحيث اؤدى عملى . . . وأفى بكل ارتباطاتى ولو متأخرة قليلا عن موعتها . . . اذن فهل يرضيك ان يتصل بى يونس شلبى تليفونيا فى البيت بعد هذه الموقعة بثلاثة أيام . ويعاتبنى قائلا: كده ا أدعوك لحضور فرحى . . . ولا تحضر !؟

هذه هى المحبطات الصغيرة التى قصدها والتى تخدّل عزمى الصادق على تنظيم الوقت واحترام المواعيد لكن لا يهم فالكفاح دوار والارادة القوية لا تهزمها امثال هذه الهنات من اصدقاء يشكون ضعف الذاكرة ا

فلا تكن مثله من فضلك وتضيع كفاحى للوفاء بعهودى لك هدرا . . . ولا تكن «مثلى» فى هذا العناء لكى تعيش فى سلام مع الآخرين . . . وتحقق نجاحك الخاص .

وشكرا لتسامحك معى وقبولك اعتذارى عن عدم كتابة مقال هذا الشهر لان الوقت سرقنى . . . قاتله الله . . . وقاتل من يسمح له بأن يسرقه ا

روماتيزم الصداقة !

أرجو أن تسجل لى هذا التعريف الجديد للصداقة الحقيقية . . فلقد قلت منذ سنوات انها روماتيزم يتسلل إلى العظام فينقح على أصحابها من حين لآخر مذكرا الانسان بحاجته إلى دفء الصداقة والأصدقاء !

والحق أنه ليس لى أى فضل فى ابتكار هذا التعريف لأنى لم اتكلف لاشتقاقه سوى التعبير عن حالى مع اصدقائى .

فبفضل الصداقة والأصدقاء . . اصابتنى آلام روماتيزم العظام فى عز شبابه فاكسبني ذلك حكمة الشيوخ وواجاعهم ، واضفت هذا الفضل إلى ديونى الكثيرة لأصدقائى .

وقصتى مع آلام الروماتيزم قديمة وترجع إلى عامى الثانى بالجامعة حين رفضت أن أقيم بالمدينة الجامعية كما يفعل الطلبة القادمون من خارج القاهرة مثلى . . واخترت ان استأجر شقة فى حى قريب من الجامعة لاستمتع بوحدة وحريتي فيها اناام حين أرغب فى النوم . . وقرأ حين تلذذ القراءة واستقبل فيها من أشياء من أصدقائى . . ، فانا - دائما - ومنذ سنوات صباى مصاحب ومصحوب .

وعندما جئت الى القاهرة لألتحق بالجامعة اقامت فى عامى الأول فى شقه مع اسرة تقيم بشارع الدقى كما كان يفعل الطلبة فى أيامى . وكانت ربة الأسرة سيدة طيبة تعاملنى بعطف الأمهات على فتى صغير السن اغترب عن اهله ليتعلم فى المدينة الواسعة ، وتقوم عنى بكل شئونى . . وعندما انتهت الدراسة وعدت لمدينتى الصغيرة فى الاجازة استخلفتنى ربة الأسرة أن أعود إلى السكنى معهم فى

العام الجديد لكنى حين انتهت الإجازة استحلقتنى ربى الأسرة أن أعود إلى السكن معهم فى العام الجديد لكنى حين انتهت الإجازة . . لم أستطع أن أفى بوعدى لها . . فقد كنت رغم إقامتى المريحة معها افتقد حريتى الشخصية وسط عائلة لا بدلى أن أراعى حرمتها عند استقبالى لأصدقائى فقررت أن أؤجر شقة مستقلة لاستمتع فيها بوحدى واستأجرت شقة فى حى قريب من الجامعة أقممت فيها ١١ عاما ، وفى هذه الشقة بدأت علاقتى بالأم الرومانيزم . . فلقد بدأت استقبل فيها أصدقاء الصبا القادمين من مدينتى للقاهرة لزيارتى . . وأصدقاء الجامعة الجدد الذين اكتسبت صداقتهم فى القاهرة ، فلم تمض على إقامتى فيها عدة شهور حتى اكتظت الشقة الصغيرة بروادها الدائمين وأصبح سريري الوحيد مشغولا دائما بضيف أو ضيفين تنازلت لها طائعا عن فراشى . . وأرض غرفة النوم كاملة العدد . . وأرض غرفة الطعام يحتلها أربعة ضيوف على الأقل ينامون حول مائدة الطعام مع كل ضلع من أضلاعها الأربعة . . وأينما سرت فى أى مكان من الشقة تعثرت فى نائم أو جالس . فتمضى الأسابيع قبل أن أجد ليلة خالية أريح جسدى المكثود فيها على فراشى حتى أصبحت لا أعرف النوم فوق السرير فى أحيان كثيرة إلا اذا سافرت فى إجازة قصيرة الى أهلى . ولم تكن المشكلة الحقيقية فى الأصدقاء من الضيوف . . وإنما كانت فى «ضيوف الضيوف» اذا صح هذا التعبير . . فأصدقاء الصبا يأتون إلى من مدينتى فأسعد بهم وأتنازل لهم راضيا عن فراشى لكننا جميعا من فصيلة واحدة تقدر الصداقة ومتعددة الصداقات ، لهذا فلا تمضى أيام حتى يأتى إليهم من مدينتنا أصدقاء لهم لا أكاد أعرف أسماءهم . . فيصبح أصدقائى أصحاب بيت ، ويحتم عليهم الواجب أن ينزلوا «لضيوفهم» عن فراشهم . . ويشرفوا الأرض معنا . . ونتحرك فى ترتيب البروتوكول وفقا للأقدمية ودرجة العشم . . فمن كانوا ينامون على أرض غرفة النوم الخشبية يهبطون درجة فى السلم الاجتماعى ، ويتزحزون إلى أرض غرفة الطعام . . ومن كانوا يفترشونها مستمتعين بالدفء القليل الذى توفره . . يتزحزون تلقائيا إلى

صقيع الصالة مع صاحب الشقة . . كما تقضى أصول الضيافة . . والجميع ينامون في صفوف متراسة كأننا في عنبر المساجين . . وكلما جاءنا زائر جديد واصلنا التحرك كما تدفع الموجة الجديدة الأمواج القديمة أمامها إلى الشاطئ حتى كاد الزحف في بعض الأوقات يطردنا أكثر من مرة إلى الردهة الصغيرة خارج الشقة . . وكل ذلك في عز الشتاء ، وليس في شهور الصيف ، وبعض ضيوف الضيوف لم يتورعوا عن استضافة بعض أصدقائهم المجهولين لي ولأصدقائي تماما حتى أصبحنا غرباء بينهم . . وأصدقاء الاسكندرية الذين فارقتهم بجامعة القاهرة . . يأتون لزيارتي من حين لآخر في رحلات منتظمة ، وأرد أنا لهم الزيارة في مواعيد محددة كأننا من رؤساء الدول . . وفي زيارتي المتكررة لأصدقاء الاسكندرية في فصل الشتاء نمت بذرة الروماتيزم التي استقرت في عظامي من النوم في عنبر المساجين بشقتي الصغيرة وترعرعت . فقد كان لا يحلو لنا حديث إلا على كورنيش البحر حتى الفجر وعواصف الشتاء تكاد تقتلعنا من الأرض اقتلاعا ولم يكن كورنيش الاسكندرية وحده هو المسئول عن آلامى الروماتيزم القديمة فكورنيش النيل أيضا له باع كبير في تأكيدها وترسيخها ، فلقد كانت شقتي قريبة منه . . وكان مكان لقائنا المختار في كازينو صغير تحت كوبرى الجامعة كنت اتردد عليه كل يوم تقريبا ومن طول العشرة وكثرة التردد أصبح الجرسون يغلق البوفيه في الثانية صباحا ويتقاضى حسابه ثم يتركنا مع الخفير لحراسة الموائد والمقاعد في عز البرد ! وفي إحدى ليالى ديسمبر التي قالت الصحف في اليوم التالى انه لم يمر على مصر برد مثل بردها منذ ثلاثين عاما أصر أحد أصدقائي وكنا قد تخرجنا وعملنا منذ سنوات على ان يصلبنى أمامه على كورنيش النيل حتى الفجر وهو يروى لي متأثرا ومنفعلا قصة حب العمر في حياته فكتمت آلامى الروماتيزم احتراما لآلامه العاطفية . ويسبب هذا الصديق بالذات كدت أصاب مرة أخرى لا بالروماتيزم وانما بقرحة المعدة أيضا . فلأنسى ممن يعتبرون الصداقة الحقيقية قيمة ثمينة في الحياة فانى لا أسافر إلى دولة ما في عمل إلا وأنحابل لأضع المدن التي رحل اليها بعض اصدقائي

على خط سير الرحلة لأنتهز الفرصة وأزورهم فيها بلا هدف سوى الالتقاء بهم .
وفي إحدى زياراتي لألمانيا منذ سنوات . . انتهت عملي في فرنكفورت ثم سافرت
في رحلة طويلة إلى هامبورج خصيصا لأزور صديقا مقبيا هناك منذ سنوات ،
فوصلت للمدينة في منتصف الليل وطلبت من سائق سيارة الأجرة ان يحملني إلى
أى فندق صغير في وسط المدينة . . وصدمت بعد وصولي إليه بأن مطعمه مغلق
وليس هناك محل أو مطعم قريب استطيع تناول عشاءى فيه . . فبت ليلتى على
الطوى وفي الصباح جاء الافطار فوجدته من السجق الألمانى الشهير وليس عندهم
غيره فرفضت اكله لأنه من لحم الخنزير واحتسيت كوب الشاى وأسرعت في سيارة
أجرة إلى عنوان صديقى في الثامنة صباحا وارتدت ان افاجئه بحضورى فلم اصرح
له باسمى حين خاطبته من تليفون الباب وانما قلت له صديق من مصر ، ففتح
الباب مرحبا دون أن يعرف شخص زائره . . وصعدت السلم اليه في الدور
الخامس وأنا ألث من التعب فما ان تعرف على حتى قابلنى بمظاهرة وقادنى
مبتهجا الى غرفة المعيشة وهو لا يكف عن الكلام والترحيب والسؤال عن مصر
والأصدقاء . . وبعد قليل وضع أمامى براد الشاى ثم جلس على الارض ليتيح
لرئيته افضل وضع للكلام وهو من فرسانه ثم راح يتكلم بلا توقف لعدة
ساعات . . ويسألنى فأجيب . . ويسترجع ذكريات زمان والروماتيزم الذى أهده
لى في مصر . ثم تنبهت فجأة إلى آلام شديدة في معدتى فتذكرت مشكلتى معها وهى
ان عصارمتها الحمضية زائدة على الطبيعى فاذا خلعت نهائيا من الطعام سببت لى آلاما
فظيعة فان لم ابادر بتناول شىء يسير من الطعام ولو باكو من البسكويت توحشت
العصارة وبدأت تنهش جدران المعدة وتهدهدها بالقرحة ، وهذا هو سر الاغماء
الخفيفة التى أشكو منها كل ليلة في رمضان عقب الافطار . وبسببها فانى لست من
هواة الطعام لكنى احتاج فقط إلى كسرة خبز أو باكو من البسكويت كل ساعتين أو
ثلاثة وربما اكتفيت بهما عن أى طعام آخر طوال اليوم . أما غرامى الحقيقى فبالشاى
أولا ثم القهوة ، لكن صديقى غارق في حديث الذكريات وقد أنسته سنوات

الغربة الطويلة مشكلتي مع الوحش الذى ينهشنى وتنبهت فاذا بالساعة قد تعدت الثانية بعد الظهر ، وآلامى قد أصبحت فوق الاحتمال ، فاستأذنت منه فى الانصراف إلى فندقى على أن أعود اليه فى المساء لكن هيهات ان يسمح لى ، وخجلت ان أصرح له بالسبب الحقيقى لرغبتي فى الانصراف لأن اليوم كان يوم سبت وهو يقيم مع سيده ألمانية عجوز فى نفس الشقة وكل شىء عندهم بالحساب وربما كانا قد أعدا ما يحتاجانه من طعام خلال عطلة نهاية الاسبوع بما لا يسمح باستضافة زائر غير متوقع مثل ، فتحاملت على نفسى على امل ان يرتوى صديقى من حديث الذكريات ويسمح لى بالانصراف فمضت ساعة اخرى تحولت بعدها الآلام الى خناجر مسمومة تطعننى فى جدران معدتى بلا رحمة فأعدت عليه رجائي فلم يلتفت اليه وواصل الكلام ! . . ثم أصبحت الساعة الرابعة والخناجر أصبحت مناشير يضاعف من حداثتها احتساء الشاي والقهوة والتدخين ، وصديقى غائب مع الذكريات فتوسلت اليه ان يأذن لى بالانصراف فلم يقبل ، فكدت أولول باكيا بين يديه طالبا العفو والسماح والاذن بساعة واحدة اغيبها عنه . . ولكن كيف يحدث ذلك والحديث ذو شجون والذكريات صدى السنين الحاكى - كما يقول الشاعر - فما ان بلغت الساعة الخامسة مساء حتى تذكرت فجأة ان الضرورات تبيح المحظورات وان الدفاع عن النفس يبيح القتل ، واننى فى حالة دفاع شرعى عن نفسى ضد وحش ينشر جدران معدتى بسنونه الحادة فنهضت مستجمعا كل حزمى وارادتى واعلنت بلهجة صارمة لا تسمح بأى تراجع اننى لا بد ان اغادر المكان الآن وفورا لأتصل بجريدتى تليفونيا لابلأغها بخبر هام حتى لا أتعرض للمساءلة وسوف أعود اليه بعد الاتصال مباشرة لأن تليفونه ليس دوليا ثم هرولت الى الباب ، وهو يهرول ورائى ورائى مؤكدا على ضرورة العودة سريعا ، وهبطت السلم قفزاً وهو يطل على من «الدرابزين» مكررا تأكيداتى وانطلقت إلى أقرب مطعم ، واسكت الوحش الذى بداخلى ، وبعد أن التقطت أنفاسى ، واسترخيت . . تذكرت أن صديقى هذا هو الوحيد من بين كل اصدقائى الذى يتبع نظاما غذائيا

عجيباً في حياته فهو لا يتناول إفطاراً ولا غداء ، وإنما يظل طوال نهاره يشرب القهوة ويدخن إلى أن تأتي الساعة التاسعة مساءً فيتناول عشاءه وهو وجبته الوحيدة كل يوم . . فأنثيت على «حزمي» المتأخر الذي أنقذني من مكابدة تلك الآلام حتى التاسعة . . واقسمت ألا أزوره بعدها إلا متحصناً بوجبتى الافطار والغداء .

ورغم كل ذلك فاذا كنت قد شبهت الصداقة الحقيقية بالرومانيزم فليس ذلك لأنها مؤلمة . . وإنما فقط لأنها دائمة ، ولا يهزمها دواء . . ولأنها أيضاً كآلامه تظل كامنّة تحت السطح حتى يخيل إليك أنك نسيتها ثم «تنفج» عليك فجأة إذا تلقت نفحة من هواء الذكريات لتذكرك بوجودها وقوتها وبأحلى أيام العمر . . وأجمل ذكرياته !

اندھش ... يا صديقي !

حين كنت طالبا في سنواتي الأولى بالجامعة . . . كنت عضوا في «عصابة» ثقافية تحرص على معرفة مدلولات المصطلحات الفكرية والسياسية الشائعة في عصرنا والتشدد بها في احاديثها بلا هدف احيانا سوى الاعلان عن اننا نعرف معانيها ! وكان من هواياتنا «الشريرة» وقتها ان نتصيد المخدوعين بمظهرنا الثقافي ونشبع غرورنا فيهم باستعراض آرائنا القيمة امامهم في كل الصراعات الفكرية والمذهبية المثارة في ذلك الوقت من الخلاف العقائدي بين الصين وروسيا . . الى الخلاف «الفكري» بين شكوكو واسماعيل ياسين ! وخلال انهكنا في المناقشة وطق الشعارات الضخمة كان يحدث احيانا ان نلاحظ ان بعض الضحايا الجدد لا يعرفون معانيها . . فلا نريهم بشرحها أو بتبسيط معانيها لهم وانما نواصل الحديث ونستدرجهم للمشاركة فيه وتقليدنا في استعمالها ثم يتوقف احدنا فجأة ليسأل احد المشاركين الجدد عن معنى احد هذه التعابير فتبدأ متعتنا الشريرة لأنه لن يعترف غالبا بأنه لا يعرف معناها بعد ان رده في حديثه من باب التقليد . . ويبدأ في «التطجين» بكلام لا معنى له ونحن نتبادل النظر في سعادة وتلذذ بمراقبته ووجهه يحتقن بتأثير الانفعال الخفى بالكذب والموقف الحرج ، ثم تتشاور بالنظرات عن اسلوب التعذيب الفكرى الذى ستتبعه معه وهل هو الأسلوب المغولى الذى يتعمد اطالة التعذيب حتى آخر مدى ام الأسلوب الرومانى الذى يلقي بالضحايا مباشرة الى الأسود الجائعة ؟ . فاذا كان الأول فلسوف نسايره ونستمع اليه باهتمام شديد ونسرف في اطراء معلوماته وثقافته العريضة ونتشكى من جهلنا بالقياس الى علمه الواسع . . ونبالغ في ذلك واحشاؤنا تتمزق بالضحك المكتوم الى ان يكتشف

الحقيقة وينفجر فينا ويقاطعنا لفترة تطول أو تقصر . . وان كان الثاني فلسوف نسمع له باهتمام ولا نعلق على ما يقول ونكتفى بالمتعة الشريرة باحراجة ثم يهمس احدنا في أذنه بالحقيقة ويزداد احساسه بالخرج ! .

ورغم ندمي على مشاركتي في هذا التعذيب الفكري واكتشافي فيما بعد اننا جميعا لم نكن مثقفين وانما ادعياء ثقافة الا أن لهذه العصابة فضلا على لا ينكر هو أنها علمتني الا أهرف بها لا اعرف . . وألا أخجل من ان اعلن عدم معرفتي بها لا أعرفه . . ومن أن أسأل من يحدثني عن شيء لا أفهمه عن معنى ما يقول وما يستخدمه من تعريفات واصطلاحات ثم تقدم بي العمر فعرفت الكثير . . وكان أهم ما عرفته هو أن المثقفين الحقيقيين هم أكثر الناس ادراكا انهم لا يعرفون لأنهم كلما عرفوا المزيد تفتحت أمامهم بحار جديدة من المعرفة لا يحيط بها إلا علم من وسع علمه كل شيء سبحانه لهذا فهم يمضون العمر «يسألون» عن معاني الأشياء . . يسألون الكتب . . ويسألون الأكثر علما في تخصصاتهم ولا يدركون الا قليلا ويندهشون لما يقرأون . . ولما يسمعون ولما يرون في الحياة من ظواهر وأشياء قد تبدو في أعين الآخرين عادية ومألوفة . . وكلما ازدادت دهشتهم ازداد حماسهم لأن يكتشفوا سر ما أدهشهم وتزداد معارفهم . . لأن الدهشة هي بداية المعرفة كما قال ارسطو . . ولأنك اذا لم تندهش لشيء فلن تجد في نفسك حماساً أو دافعا لأن تعرف كنهه وتجلو سره . .

ولولا موقف الدهشة هذا لما حاول الانسان ان يعرف اسرار الطبيعة واسرار العلاقات الانسانية ولما اكتشف العلماء والمفكرون والفقهاء نظرياتهم ولما كتب الأدباء معظم اعمالهم .

فلولا ان اندهش سقراط مثلا حين حيّاه رجل في الطريق قائلا له «صباح الخير» فتوقف متفكرا في معنى الخير ثم راح يتساءل عن معناه . . وعن معنى الفضيلة والحق والجمال . . الخ لما كانت بداية الفلسفة ! .

ولولا أن اندهش بعض العلماء حين لاحظوا ان السفينة يصغر حجمها كلما

ابتعدت عنهم لما قادهم تعجبهم الى اكتشاف كروية الأرض . . ولولا أن اندهش الانسان حين رأى السفينة الكبيرة تطفو على الماء والمسار الصغير يغوص فيه لما اكتشف قانون الطفو .

ولولا أن اندهش عالم النفس النمساوى سيجموند فرويد حين لاحظ أن إحدى مريضاته تغسل يديها مائة مرة كل يوم وهي تردد أن يديها قذرتان ، لما اكتشف العلاقة المستتيرة بين الاحساس بالإثم وبين غسل اليدين في بعض الحالات ولما عاجلها بحملها على الاعتراف بخطيئتها وغسل ضميرها منها .

ولولا أن إنددهش عالم الطبيعة اسحق نيوتن حين لاحظ أن الضوء تتغير طبيعته حين يخترق الزجاج لما أجرى تجاربه لتحليله الى ألوان الطيف المعروفة بالمشهور الزجاجى ولولا تعجبه أيضا لمشهد رآه البشر ملايين المرات وهو سقوط ثمرة ناضجة من فرعها ، لما اكتشف قانون الجاذبية الأرضية .

بل لولا أن إنددهش العظيم الراحل يوسف إدريس لقدرة خادمة صغيرة على حفظ توازنها وهي تحمل صابجات كعك العيد وصينية بطاطس ولتردها بين واجبها وبين رغبتها كطفلة في مشاركة الأطفال لعبهم في الشارع لما كتب قصته الانسانية الجميلة «نظرة» التي ولد بها كاتبها عملاقا حين نشرها لأول مرة .

بل إن كل المكتشفات العلمية الحديثة والأعمال الأدبية الخالدة هي ثمرة دهشة الإنسان أمام الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية والإنسانية ومحاولته الربط بين اجزائها المتناثرة بالتجريب في العلم . . وبالتحليل والتأمل في الفكر والأدب .

والانسان الذى يفقد قدرته على الدهشة يفقد حماسه للحياة ورغبته في إثراء معارفه وتجاربه الانسانية وتتجمد مشاعره ولا يعود صالحا لشيء إلا للموت .

ولقد روى أحد القضاة أنه زار البيرونى أعظم عالم في التاريخ الاسلامى وهو في النزاع الأخير . . وصدره يتحشرج بتحشرج الموت . . ففوجئ بالبيرونى يسأله عن مسألة في فقه الموارث وتحرج القاضي من ارهاقه فسأله : أفى هذه الحالة ؟ . . فأجابه مؤكدا : نعم في هذه الحالة . . فلأن اغادر الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة خير

لى من أن اغادرها وأنا جاهل بها ! . . ويحييه القاضى عما سأل ولا يكاد يغادره حتى
ينعيه له الناعون وهو على بعد خطوات من بيته ! .

والفيلسوف الانجليزى فرنسيس بيكون كان يركب - ذات يوم - حصانا وهو
يفكر فى طريقة لحفظ الجسم بعد الموت ، فنزل عن حصانه وذبح دجاجة وملأها
بالتلج واستعد للعودة ليرقب ما سيحدث لها ففاجأته القشعريرة وارسل
لاصحابه أنه يموت ومات فعلا وهو يفكر فى «المسألة» التى أراد ان يعرفها قبل ان
يغادر الحياة ! .

فاندعش انت أيضا يا صديقى لكل ما تراه وتسمعه فالدهشة بداية الطريق
للمعرفة . . ووقود الحماس لمعرفة الأشياء وللحياة . والمتقف الحقيقى هو من
يعرف أنه لا يعرف الكثير ويريد أن يعرف الكثير . . والجاهل هو من لا يعرف أنه
لا يعرف حتى القليل ولا يريد أن يعرف المزيد .

والأخطر منهما هو من كان مثلنا زمان والذى يعرف أقل القليل ويتصور انه
يعرف الكثير . . «ويعذب» الآخرين بالقليل الذى يعرفه ! .

وانتم؟

شيثان كرهتهما في رحلاتي للخارج حين أكون مدعوا لزيارة دولة ما . . هما المرافق الذي تفرضه على الجهة الداعية ليصاحبني في تنقلاتي وزياراتي ، ومآدب الغداء والعشاء الرسمية في دول أوروبا الشيوعية قبل أن تتخلص من الحكم الشمولي الشيوعي .

فأما المرافق فقد كانت لي معه في معظم رحلاتي متاعب ومفارقات طريفة . . وأما المآدب الرسمية في الدول الشمولية سابقا فقد كانت طقوسها تصبيني بمتاعب معوية حادة الى جانب مللها .

فلقد زرت إحدى هذه الدول فكان المرافق لي بالضرورة من كوادر الحزب . . وسائق السيارة من كوادره أيضاً . ومهمة المرافق هي أن يسر لي زياراتي ويترجم لي محادثاتي مع من لا يعرفون الانجليزية . ثم مراقبتي وكتابة تقرير يومي عن تحركاتي وتسجيل كل شاردة وواردة في اتصالاتي بمن التقى بهم عرضاً في الشارع . كأنني لست ضيفاً رسمياً على الدولة والحزب وانما «امبريالي» متخف جاء لينظم الثورة المضادة ضد «الحكم التقدمي للحزب الطليعي القائد» . وكان هذا هو المتبع مع الزوار الأجانب بلا استثناء بل مع الجميع من أبناء الشعب القائد . فالمرافق الذي يبدو كالصنم ولا يجيب إلا على الاسئلة التي لا تتعارض مع خط الحزب . . يراقبني . . وسائق السيارة يراقبه . . والجميع يراقبون الجميع ا وكان لا بد أن يكون من بين فقرات برنامج الزيارة عدة مآدب للغداء أو العشاء في كل مدينة نزورها . . فيحضرها مسئول الحزب في المدينة وتبدأ برفع الانخاب في صحة أهداف عالمية فخيمة لا يتناسب جلالها مع المأدبة الفقيرة والوجوه الجامدة المحيطة

بها ، لكن لا بد من اداء الواجب والالتزام بأداب الضيافة . . وقد تعلمت من تجاربي السابقة أن من لا يشرب الخمر يستطيع أن يشارك في الانخاب بكأس من الماء . . وكلما رفعوا أنخابهم رفعت معهم كأس الماء وتجرعته . وبدأت إحدى هذه المآدب وكنا في بلدة جبلية صغيرة والمدعون لا يزيدون على ثمانية والجو بارد ورغبة الرفاق في الدفء والاستمتاع بالطعام قوية ، فألقى مسئول الحزب كلمة قصيرة ترددت فيها الشعارات المألوفة فرددت عليها بكلمة اشد قصرا والمترجم يلاحقني كأنني انطق بالدرر ثم بدأت الانخاب فشربنا نخب السلام العالمى والتأخى بين الشعوب وجلسنا . وتناولنا بعض الطعام فاذا بمسئول حزبي آخر ينهض رافعا نخب التضامن الآسيوى الافريقى ثم نخب الحركة الوطنية لتحرير الشعوب . . ثم عدم الانحياز ثم الثورة الفلسطينية . . ثم تحرير سيناء ثم احررت الوجوه بحرارة الفودكا التى يتجرعونها وغاب الزمان والمكان عن معظمهم فلم يرحموا ضعفى وعجزى عن ملاحقة انخابهم اللذيذة بكأس الماء التى شربت منها حتى امتلأت ولم يعد فى معدتى متسع للمزيد . . وتواصلت الانخاب وفتشنا عن جميع الحركات الاستقلالية فى العالم حتى شربنا نخب استقلال اقليم ناميبيا ! وتونعت أن يكون مسك الختام اذ ليس بعد استقلال ناميبيا عن جنوب افريقيا استقلال ، لكن هيهات ان تنتهى حركات تحرير الشعوب من خريطة الدنيا . . فأمسك امين الحزب بالمدينة الجبلية كأسه استعدادا لرفعها . . فأذترتنى مثنائى الممتلئة عن آخرها بكارثة توشك أن تفسد جلال المناسبة التضالية الخطيرة ، لكنه خيل الى أن مصائر هذه الشعوب المكافحة يتوقف كله الآن على قدرتى على رفع كأس الماء الى شفتى هذه المرة فلم اشأ خذلانها وتحاملت على نفسى ورفعتها بصعوبة بالغة الى أن تم النخب بسلام . واستأذنت مضيفى فى دقائق قليلة اذهب خلالها الى الحمام لاعداد لمواصلة النضال وتحرير كل الشعوب المقهورة فى هذه الليلة السوداء وهرولت فى اتجاهه . وعدت أكثر نشاطا واستعدادا للكفاح فتواصلت الانخاب حتى عجز الرفاق عن النهوض عن المائدة وجاء الجرسونات ليساعدوهم

وقاموا يتساندون . وعدت الى الفندق وانا اقسم الا اشارك في اى حركة تحرير وطنية من هذا النوع مرة اخرى . لكن هل يستطيع الانسان أن يحقق لنفسه كل ما يتمناه لها ؟ بالطبع لا . . لقد تواصلت المآدب والأنخاب .

وتكررت القصة بشكل أقل كاريكاتيرية مما حدث في تلك المدينة الجبلية الصغيرة في دول اخرى شمولية ، حتى تساءلت في براءة ذات مرة هل تتأخر الحركة التقدمية العالمية كثيرا اذا وضعوا أمامي في هذه المآدب كوبا من الشاي بدلا من كأس الماء ؟ فكان الجواب انها غالباً سوف تنهار من أساسها كما انهارت الشيوعية فجأة في الاتحاد السوفيتي وشرق اوروبا .

وأما المرافق فطرائفه كثيرة وقد تعلمت من مرافق شاب صاحبنى في زيارتي لبغداد سنة ١٩٨٣ إلا أخرج مرافقا في دولة بوليسية بأى سؤال عن الديمقراطية أو الحريات أو أى شىء يتعارض مع خط الحزب الحاكم ولو كان عن ممثل كوميدى مغضوب عليه مؤقتا من رجال الحزب . وتعلمت هذا الدرس الثمين من مرافق بغداد الذى كنت أسأله السؤال العابر ومن باب الدردشة وتسلية الفراغ خلال رحلة السيارة ، عن نسبة الشيعة في العراق مثلا فلا يجيبني إلا بإبتسامة بلهاء ولا يرد كائنى لم أسأل وكأنه لم يسمع . . وهكذا في كل الأسئلة المماثلة حتى رجوته أن يسأل نفسه هو الاسئلة المسموح بها ويجيب عنها لأجنبه الحرج !

أما في جيبوتى وهى دولة افريقية تقع في الطرف الجنوبى للبحر الأحمر وعضو بالجامعة العربية لكن معظم سكانها لا يتكلمون اللغة العربية وانا الفرنسية أو الصومالية ، فقد كان مرافقى فيها هو سائق السيارة توفيرا للنفقات وكان شخصية ذكية وغريبة ويتحدث بضع كلمات من العربية وقد تعلمت منه شيئا يستحق ان يضاف الى معلومات اساتذة العلوم السياسية عن العلاقة بين الحكومات والشعوب في العالم الثالث . فقد صاحبنى في جولة الى سوق مدينة جيبوتى لألتقط بعض الصور للناس والحياة في هذه المدينة فما أن نزلت الى السوق وصورت بعض الباعة والأشخاص العابرين حتى فوجئت بحالة هياج عامة بينهم . . وبالشرر يتطايرون

عيونهم وباصوات تتحدث بالصومالية في غضب شديد ومن يعرفون بضع كلمات من العربية منهم يقولون «لا تصور» كل ذلك ومرافقى المسئول عن حمايتى جالس أمام عجلة القيادة ينظر الى في هدوء كأن شيئا لم يكن فعدت اليه منزعجا وسألته عن سبب غضبهم فقال لى في ثقة غريبة لا تخشى شيئا سوف أنصرف فوراً ، ثم خرج من السيارة ونطق ببضع كلمات بالصومالية فاذا بالثورة قد خمدت واذا بمن كادوا يفتكون بى منذ لحظات يتسمون في وجهى ويدعوننى لتصويرهم ويرحبون بى ونظرت للسائق نظرتى الى ساحر افريقى قادر على المعجزات واسترددت ثقتى في نفسى . وسألته في خيلاء : طبعاً قلت لهم انى ضيف الحكومة فهدأوا ؟ فاذا به يقول لى ببساطة : ابدأ بل قلت لهم انك سائح لا علاقة له بالحكومة ! لأنهم يتصورون ان تصويرهم من جانب الحكومة لا بد أن يكون نذيراً بضريبة جديدة للبلدية . . أو غرامة . . أو مخالفة . . وجميئاً مندوب للحكومة لا بد أن يعنى لهم متاعب جديدة بشكل أو بآخر .

وتسرب خيالاتى في الهواء وانكملت في السيارة وأنا أطلب منه العودة للفندق!

وفي رومانيا جاءوا لنا بمرافق شاب تعلم العربية في جامعة موسكو ويتحدثها بلغة الزمخشري وسيبويه ولا يعرف إلا مفرداتها الفصيحة . . وكان نجدة لنا في التفاهم مع صغار المسئولين والحزبيين الذين لا يعرفون سوى الرومانية . . ولقد طالبت زيارتنا لرومانيا ١٥ يوما وكنا وفدا من ثلاثة أعضاء من نقابة الصحفيين المصريين فتجولنا في مدنها من الشمال الى الجنوب والمرافق معنا . . وقد اقترب منا واقتربنا منه وكان اسمه بيتر فترجمناه للعربية على الفور الى «بطرس» فاذا رضىنا عنه واستجاب لمطالبنا اسميناه بطرس الأكبر مؤسس الدولة الروسية الحديثة وأول اباطرتها الذى حكمها من ١٦٨٢ الى ١٧٢٥ وعاش ١٠٤ سنوات وحكم بلاده ٤٣ سنة متواصلة . . وتمنينا له عمرا كعمره الطويل وفترة «حكم» لا تقل عن فترته ! فيضحك سعيدا . . واذا ضايقنا وطوع برنامجنا لزيارة بعض اقاربه في الطريق

جلسة من وراء الحزب نادينا «بيتر» كما ينطقون اسمه بالرومانية .
وكان من عادته كلما جلسنا للغداء أن يتأكد في كل مرة مما لفتنا نظره اليه في
اليوم الأول وهو أننا لا نأكل لحم الخنزير وإنما نأكل لحم البقر . . وكان هو يفضل
لحم الخنزير فسالنا وهو يمسك بالقائمة : انا خنزير . . وأنتم بقر ؟ فتضحك
والفت نظره الى خطأ السؤال بهذه الصيغة واصبح له الجملة فيحفظها ويكررها ثم
يعود .

وكان قد ضايقنا بالانتظار طويلا في ذلك اليوم ليتهى من الحديث مع بعض
اقاربه حين جلسنا الى مائدة الغداء . . وسألنا نفس السؤال التقليدي بنفس الخطأ
اللغوي :

● أنا خنزير . . وأنتم بقر ؟

فوجدت نفسى أجيبه على الفور : لا . . بل أنت خنزير . . ونحن نأكل لحم
البقر !

وضحك زميلاي في الوفد وشمتم أنا في «بيتر» الخبيث الذى طوع معظم
فقرات برنامجنا لأغراضه العائلية والشخصية ونسى . . حكاية تضامن الشعوب
واستقلال ناميبيا في معظم الرحلة !!

القفز فوق السواجز

في قصة جميلة للكاتب العظيم تشيكوف . . . التقى رجلان غريبان في محطة
القطار أحدهما بدين انيق كان خارجا من مطعم المحطة والآخر نحيف جاف العود
كان نازلا لتوه من القطار ومعه زوجته النحيلة وولده وحقائب وصناديق ،
واكتشف كل منهما ان الآخر هو صديق الطفولة القديم فاندفع يحيه ويعانقه . . .
ووقف الاثنان مبهورى الأنفاس من المفاجأة السعيدة ، وقدم النحيف للبدين
زوجته وولده وراح يذكره باللقب الذي كان التلاميذ يغيظونه به في المدرسة
والبدين يضحك من اعماق قلبه ويذكره بلقبه الآخر الذي اطلقوه عليه ويسأل
البدين صديقه القديم عن احواله فيجيبه انها لا بأس بها ، صحيح ان المرتب ضئيل
والوظيفة صغيرة . . . لكنه موظف محترم في الدرجة الثامنة وزوجته تساعد
باعطاء دروس في الموسيقى . . . وهو نفسه يصنع علبا خشبية جميلة للسجائر ،
ويبيعها الواحدة بروبيل ، وقد نقل الى هذه المدينة ثم يسأله عما يعمل . . . فيجيبه
البدين بتواضع انه يشغل وظيفة مستشار سام بالحكومة وحاصل على وسام
النجمتين . . . فيمتقع وجه النحيف حين يعرف انه امام احد كبار موظفي الدولة
الذين يرتحف إذا زار أحدهم وزارته . . . وتلهل زوجته . . . ويزرر ابنه جاكته
بحركة لا ارادية ثم يتمالك النحيف نفسه ويتسم ابتسامة عريضة ويقول له فجأة :

اننى سعيد جدا بلقائك . . . يا صاحب السعادة !

وترن عبارة صاحب السعادة رنينا غريبا في اذن البدين ويحس كأن حاجزا
وهيا قد انتصب فجأة بينه وبين صديق الطفولة القديم فيقول له عاتبا :

ما هذه اللهجة الجديدة ونحن صديقا طفولة ؟ لكن النحيف لا يستطيع ان

يستعيد صدق مشاعر الصديق القديم فقد أفسدها عليه احساسه بالفارق الوظيفي الكبير بينه وبين زميله السابق فيعود للحديث بنفس الابتسامة المصنوعة والخشوع الزائد . . . ويحس البسدين ان لحظات الصفاء القديم قد انتهت فيصافحه وينصرف . . . ويترك وراءه الأسرة البائسة وهى فى ذهول سعيد !

x x x

وفى كتاب «أنا والقانون والفن» لتوفيق الحكيم ، يروى أنه وهو يعمل وكيلًا للنيابة فى دمنهور فى الثلاثينيات جاءت للمدينة فرقة مسرحية بطلها ممثل قديم كان معروفًا باسم عمر افندى وقد سبق ان مثل مسرحيات للحكيم فى القاهرة قبل ان يتخرج ويعمل بالنيابة ، فرآها وكيل النائب العام الفنان فرصة ليعيش ليلة من ليالى الفن القديمة مع صديقه الممثل القديم ، فاخفى عن انظار رئيس النيابة لكيلا يكلفه بعمل يعوقه عن حضور المسرحية فى المساء وبعد انتهائها التقى بالممثل خلف الكواليس واصطحبه فى جولة بشوارع المدينة يأكلان السميط ويستعيدان ذكريات الفن والصدقة الفنية . . والحكيم يستحثة ان يروى له كيف اشتغل بالتمثيل . . . والممثل يحكى بتلقائية الفنان الصادق والحكيم سابع فى دنيا الفن القديمة التى حرم منها بعد اشتغاله بالنيابة وارتباطه بقيودها وتحفظها المعهود ، وكلما شاهد شرطيا قادمًا من بعيد مال بصاحبه الى شارع جانبي خوفا من ان يكون قادمًا اليه باستدعاء من وكيل النيابة ، وتكررت القصة عدة مرات حتى بدأ الشك يساور الممثل القديم فى ان يكون صديقه الحكيم مجرمًا هاربًا من العدالة . . . والا فلماذا يفزع كلما رأى شرطيا ويفر الى الشوارع الجانبية . . . وسأله بقلق :

ما هو عملك ؟ . . فيتهرب الحكيم من الاجابة ويستحثة على ان يواصل ذكرياته الفنية ، ويعود الممثل للحديث ثم يتوقف ليسأله فى خوف :

هل ارتكبت جريمة ؟ فلا تزيده اجابة الحكيم اطمئنانا . . . فيجرب فجأة فرارًا من الرجل المشبه الغامض . . . لأنه غريب عن المدينة ولا يريد أن يقع فى

أية متاعب ، ويجرى وراءه الحكيم يحاول طمأنته بلا فائدة ، ويشاء سوء حظ الممثل ان تمر داورية شرطة فتراه يعدو في فزع فتوقفه وتسأله عن سبب جريه في الشارع في الثانية بعد منتصف الليل . . . فينهار الممثل ويندب حظه . . . ويقسم للجوايش أنه لا يعرف ذلك المجرم المطارد ، ويضطر الحكيم للتدخل لانقاذه . . . فما ان يقترب من الداورية حتى يدق الجنود الأرض بأحذيتهم ويرفعون أيديهم بالتحية . . . للبك وكيل النائب العام . . . ويعرف الممثل القديم قصة الحكيم مع رئيس النيابة ويضحك لها كثيرا . . . ويطلب منه الحكيم استئناف القصة التي قطعها فزعه المفاجيء وجريه منه . . . فيفاجأ به يقول له بصوت مختلف وبلهجة يشوبها الاحترام الشديد :

أظن أن الوقت قد تأخر على سعادتك كثيرا الآن !
فترن العبارة في اذن الحكيم رنيئا غريبا . . أسف له كثيرا . . ويحس بأن حاجزا وهميا قد انتصب فجأة بينه وبين صديقه الممثل القديم .

× × ×

وفي بعض مذكراته روى الدكتور صبرى السوربونى انه التحق كسكرتير بالوفد المصرى الذى سافر لباريس بعد ثورة ١٩١٩ ليعرض قضية مصر على مؤتمر فرساي ، فسد المؤتمر أبوابه في وجه الوفد المصرى . . وتجاهلته الصحافة والدوائر السياسية . . فخرج يتمشى ذات اصيل في حديقة لوكسمبورج . . ففوجيء برؤية مدرس مصرى مبعوث لتعلم اللغة الفرنسية ولا صلة له بالسياسة قادما وذراعه في ذراع شيخ فرنسى عجوز وهما يتبادلان النكات والضحكات في ألفة ، ثم انصرف الفرنسى فجاء المدرس يصافح السوربونى فسأله مذهولا :

اتعرف من هذا الفرنسى الذى كان بصحبتك فأجابه ببساطة :
انه رجل عجوز ظريف يلتقى بى كل يوم في الخامسة هنا فتتجول في الحديقة نتفرج على جمال الفتيات وتبادل النكات حولها وله تعليقات ذكية ولاذعة تضحكنى كثيرا !

فقال له السوربوني :

انه اعظم أديب فرنسى على قيد الحياة انه اناتول فرانس . . ومقالة واحدة منه تكفى للفت الأنظار لقضية بلادنا فحاول ان تقنعه بعدالتها !
وفى اليوم التالى جاء الرجل العجوز فى موعده فسأل صديقه المصرى عن اخبار الجمال هذا المساء !

فانتفض المدرس يحببه باحترام شديد ويعتذر له عن جهله السابق به . . ويقول له أنه لم يكن يعرف انه ينال شرف صحبة اعظم أدباء فرنسا المعاصرين !
فاذا بأناتول فرانس يتغير وجهه . . ثم يقول له بأسف : خسارة لقد كنت استمتع بصداقتك لكنها قد انتهت الآن فوداعا ثم انصرف ولم يعد للحديقة ولم يلتق بالمدرس المصرى بعد ذلك مرة اخرى . . فلقد أفسد عليه ذلك الحاجز الوهمى - الذى انتصب فجأة بينهما - البساطة والحرية التى كانا يتعاملان بها . . ويستمتع بها على وجه الخصوص الأديب العظيم ، ورغم انه لم ير المدرس مرة اخرى فلقد كان ذلك فيما يبدو بداية لاهتمامه بالقضية المصرية إذ لم يلبث أن اصدر كتاب صوت مصر ودافع فيه بحرارة عن حقها فى الاستقلال عن انجلترا .

x x x

ترى ماذا يجمع بين هذه القصص الثلاث ؟

يجمع بينها فى ظنى فى شىء مشترك هو أن الإنسان لا يكون مع اصدقاء الطفولة والصبا وأصدقاء مراحل النضج هو نفسه فى بساطته وتلقائيته وربما فى صدق مشاعره اذا بالغ فى الاحساس بأنه أقل جدارة بصداقتهم لمجرد اختلاف الحظوظ والمراتب بينه وبينهم ، فالإنسان يحتاج الى الصداقة الحقيقية والى دفء مشاعر الأصدقاء القدامى لأنهم جزء من حياته يحس بالخواء النفسى اذا افتقده بغض النظر عن حظوظهم فى الدنيا .

وانت صديق ممتاز لصديبة : . صدق مشاعرك تجاهه وبالفهم المشترك الذى يجمعكما وبالراحة النفسية التى تشيع فى نفسيكما عند اللقاء وبحرصك على هذه

الصدّاقة . . . وبقیمك الأخلاقية والدينية وخصالك الجميلة سواء أكنت وزيرا أم خفيرا أو كنت الطرف الذي سخت عليه الحياة . . أو الجانب الذي لم ينل منها الا القليل لسبب هام هو انك انسان . . وكل انسان جدير بالاحترام وبالصداقة لسجاياه واخلاقه قبل أى شىء آخر فلا تضع نفسك دون منزلتك لمجرد ان حصانك ما زال يجرى بطيئا فى سباق الحياة ذلك أنك ان لم تعرف لنفسك حقها فلن يعرفه لك أحد الا المنصفون وحدهم . . وما اقلهم فى هذه الحياة الصاخبة وما أندرهم حين يتلفت الانسان حوله باحثا عن راحة القلب والنفس مع من يطمئن اليهم بلا هواجس ولا ظنون فيطول بحثه قبل أن يجد بغيته الثمينة .

والقضاء ورانى !

ليست شكوى والله . . وانما مجرد فضفضة معك ارجو ان تتقبلها بصدر رحب
فمنذ شاء قدرى أن اكتب باب بريد الجمعة في الأهرام منذ ٩ سنوات . . وشاء الله
ان يلقي بعض القبول عند القراء وانا ادفع ثمن هذا القبول من صحتى واعصابي
وبريق عيني راضيا بما ادفع وسعيدا بما أحصد .

فلقد تغيرت أشياء كثيرة في حياتي خلال تلك السنوات . فقبل ان اكتبه كانت
قراءاتي في الأدب العربى والعالمى والتاريخ والفلسفة اكثر منها في أي مجال آخر . .
فأصبحت قراءاتي في الفقه والشريعة وعلم النفس وقانون الأحوال الشخصية اكثر
منها في باقى فروع المعرفة . . ان لم تقتصر عليها بحكم الضرورة ، وبعد ان كنت
اتابع آخر اتجاهات المسرح الحديثة . . واشهد كل عروضه الجادة وغير الجادة في
مصر اصبحت زيارة المسرح ترفا لا يسمح به وقتى اللهم الا مرة أو مرتين في لندن
خلال زيارتي السنوية لها ، وبعد ان كنت زبونا دائما في حفلات الاوركسترا
السيمفونى ووجها مألوفاً في حفلات الموسيقى العربية لم اعد اذكر آخر مرة
حضرت فيها هذه ولا تلك لأن مشاكل الانسان مع اخيه الانسان وهى صلب
رسائل بريد الجمعة — لم تدع لى فرصة لحضورها حتى انى لم ادخل مبنى الأوبرا
الجديدة حتى الآن على كثرة ما تلقيته من دعوات لحفلاتها . . ومع انى كنت من
رواد الأوبرا القديمة الدائمين فى صباى . . وشبابي «الغابر» .

وبدلاً من انطلاقي القديم وقلقى الدائم الذى كان لا يسمح لى بالجلوس فى
مكان واحد لأكثر من ساعة . . فاذا خرجت لقضاء سهرة مثلاً لم أطق قضاءها فى
مكان واحد وتنقلت بين عدة اماكن ومحلات عامة كأنى مكلف بالتفتيش عليها

وليس بقضاء السهرة فيها ، أصبحت حبيس الغرف المغلقة في مكتبي بمسكني ومكتبي بعملى اتنفس الهواء الثقيل المشبع بسحابات دخان سجائر المهمومين وزفرات الحائرين . . وأصبح مكتبي لا يخلو من البشر كل ساعات وجودي فيه حتى ليتعذر على احيانا ان اجري مكالمة تليفونية في بعض شئونى الخاصة . .

كما أصبحت ولا فخر من اكبر مستهلكى علب المناديل الورقية في الأهرام . . حيث اعتدت اذا لمحت بوادى الدمع تتجمع في عيني زائرى او زائرتى من رواد بريد الجمعة ان أضع العلبة أمامه لأدعوه ليتخفف بلا حرج من دمة في مناديلها . . فيستجيب أو تستجيب . . واحترم دموعها الى ان تتالك نفسها وتعود لاستكمال قصتها أو مأساتها غالبا ، ففى مكتبي لا أسمع الا المأسى . . ولا ارى الإنسان إلا فى ضعفه . . أما اذننى فقد أصبحت اعانى من التهاب متكرر فيها من كثرة ما تلتصق بساعة التليفون لاسمع هموم المهمومين واجتهد فى ابداء الرأى فيها واما صداعى فلقد أصبح زائرى اليومى .

ومشكلتى هى أن بعض القراء من اصدقاء بريد الجمعة لا يفضلون ارسال مشاكلهم الى على الورق لأقرأها وافكر فيها فى هدوء ثم ابدى رأى بشأنها بروية ، وإنما يفضلون ان يعرضوها على مباشرة ويطلبون مشورتى فيها .

والحق انى لا أضيق بأى مهموم يريد أن يستشيرني فيما يؤرقه ، لكننى أشكو فقط من أن يومى لا يتسع ابدا لكل ما أريد أن أصنعه فيه من اداء لواجبى فى بريد الأهرام اليومى ومجلة الشباب ومستوليتى فى الأهرام ثم مع أصدقائى على الورق من أصحاب المشاكل والمهموم الذين يحسنون الظن برأىي ويطلبونه فى مشاكلهم .

والذهن يا صديقى كالجسم لا بد له من أن ينال حقه من الراحة . . لكى يستطيع أن يؤدى مهمته بكفاءة ، وأنا أعتبر الرأى شهادة اسأل عنها أمام الله وليس امام من يستفتينى فى أمره . . لهذا فلا يعنينى فى كثير أو قليل إن يرضيه رأىي أو يغضبه وإنما كل همى ان يرضى ربي ويرضى الحق والعدل كما اتصورهما وفى حدود اجتهادى . . ولا ألزم احدا برأىي أبداً . . . واطرب لعبارة الإمام أبى

حنيفة «قولنا هذا رأى وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالاتباع منا» وليس من حسن اداء الأمانة ان اتصدى لمهمة وأنا غير مهيا لها جسديا وذهنيا وبعد ان استنفدت كل قدرتى على التركيز والتفكير . . فاذا صادفنى صاحب مشكلة يطلب رأى وأنا فى هذه الحالة فان هذا هو عذابى الخاص الذى لا يدرى به أحد . . وهذه هى اللحظة التى توسوس لى فيها النفس الأمارة بالسوء بالضيق مما اجدنى مضطراً اليه ولست قادراً عليه . . لكنى سرعان ما أردت نفسى الى رشدها واذكرها بأن لكل مسئولية تبعاتها . . وان هذه هى تبعات الطريق الذى اخترته لنفسى بارادتى وراضياً بقدرى وقضائى واردد دائماً شطرة بيت الشعر الصوفى الجميل التى احبها :

شوقى امامى . . والقضاء ورائى !

وهو ليس قدراً فقط . . وانما فضل وكرم انعم بهما على ربي وارجو أن أكون جديراً بنعمته . . ، فهؤلاء الذين يلجأون الى طلبا لمشورتى . ويفتحون لى قلوبهم ويطلعوننى على ادق اسرارهم الشخصية انما يتفضلون على بثقة غالية فى شخصى الضعيف على غير سابق معرفة . ويتصورون أن رأى سوف يفيدهم فى مشاكلهم ، مع انى لا ادعى الحكمة . . وأومن دائماً بأن الناصح قد لا يكون بأحكم من طالب النصيحة . . لكن المشكلة ان الانسان حين يكون مهموماً بأمر يشغله يحتاج أحياناً الى من ينظر الى مشكلته من خارجها بعيداً عن التأثير بانفعالاتها ، وهو غالباً قد يكون قد توصل الى هذا الرأى فيما بينه وبين نفسه لكنه فى حاجة لمن يؤكد له صحة قراره ، كما ان المشكلة ليست فى الرأى وانما فى الاستعداد النفسى للاستماع للهموم . . وكل انسان يستطيع ان يفعل ذلك اذا قبل ان يعطى من وقته وفكره واعصابه للآخرين .

لهذا فانى لا أشكو اليك قدرى ولا القضاء الذى ورائى وانما اشكو اليك فقط قلة ساعات اليوم التى لا تزيد بكل اسف على ٢٤ ساعة ، وزغللة عينى ومسارعة الصداق الى رأسى كما يسارع المحبوب الى لقاء حبيبته كلما طالت فترات الاستماع

والتفكير . . او كلما فاجأني زائر مهموم بغير موعد . . فهذه هي فقط اللحظات التي توسوس لي فيها النفس الامارة بالسوء بوسوساتها . . فاحاول اولا اقتناعه بتأجيل ابداء رأيي في مشكلته الى ان استرد لياقتي الذهنية فاذا قبل شكرته واذا اصر سلمت امرى لخالقي وطلبت فتجان القهوة السادس واستعدت بالله من الزلزل وسمعت وتكلمت بما يلهمني به الله . . ثم ينصرف شاكرا . . ولولا الخجل لطلبت منه قبل ان ينصرف ان يساعدني على الوقوف على قدمي لاغادر المكتب قبل ان يؤخرني زائر جديد ولم يعد في الصدر مكانا لهم جديد فاذا شاء حظي بعد ذلك وكثيرا ما يشاء أن أجد من يترى لي بجوار السيارة عند باب المبنى ليحدثني في مشكلة لا يستطيع الانتظار عليها فانها ستكون غالبا ليلة ليلاء! أما فيما عدا ذلك فأهلاً بالجميع . . ما دامت الصحة والوقت يسمحان بأداء هذا الواجب الذي يستطيع كل انسان ان يتعبد به الى جانب صلاته . .

فاذا كنت قادما ذات مساء للأهرام ولدى زوار كثيرين بمواعيد سابقة ثم وجدت ابا فاضلا يستنجد بي في مشكلة عائلية فلا بأس من الاعتذار لبعض الزوار عن التأخر في استقبالهم بسبب هذا الزائر الطارئ ، ثم اجلس معه ساعتين وهو يتحدث ويزفر ويبثني هم بابنته الجامعية الجميلة الرشيدة العاقلة التي احبت جارها وارتبطت به عاطفيا ٤ سنوات وتصر على الزواج منه بالرغم من انه محدود الدخل وشاء له سوء حظه ان يتعثر في تعليمه ، فاسمع منه واستجيب لرجائه في أن استقبل ابنته بعد يومين فتجىء معه . . واجلس معها على انفراد واسمع منها ثم اجمع بينها وبين ابيها واصارحه برأيي . . وهو ان من الحكمة والدين أن يوافق على زواجهما وأن يؤدي واجبه كأب معها فهذا اصون لابنته وارضى لحقوقها عليه وحقه عليها . . فهي لا تريد ان تخرج عن طاعته ولا تريد أن تنازل عن حبها . . وان تنازلت فلن تقبل غيره . كما أنها رشيدة وعاقلة وليست طائشة وارتباطها العاطفي يزيد على ٤ سنوات مما يقطع بأنه ارتباط جاد وليس عابرا ، ثم أولا وأخيرا لاننا الآباء والأبباء والامهات هم الرحماء . وينصرف الاثنان . . والأب يعلن موافقته

النهائية لكنه حزين والابنة سعيدة لكنها لا تخلو من اشفاق على أبيها .
ولا بأس أيضاً من استقبال هذه الزوجة الشابة المتدينة مع شقيقها . . بعد ان هجرت عشها لمدة ٣ شهور وفشلت كل محاولات اقناعها بالعودة والرجوع عن طلب الطلاق فاسمع لها ، ثم يأتى زوجها فاسمع له على انفراد . . ثم اطلب من الشقيق أن ينتظر في غرفة اخرى لأجمع بين الزوجين واتحدث اليها . . ثم اركز حديثي على الزوجة وهى ذات دين واجيب عن سؤالها الحائر هل ما شكت لى منه يبرر لها الطلاق بغير ان تظلم زوجها ، ، بأنه لا يبرره اذا كان فى مقدوره الرجوع عنه . . وهو يبدى كل استعداده لذلك . . ثم أتحدث اليها طويلاً . . وانتظر قرارها خائفا كمن ينتظر حكم الإعدام . . وأتنفس الصعداء حين يكون قرارها هو فتح صفحة جديدة معه والعودة الى عشها المهجور . . ثم استدعى شقيقها وأبلغه بقرارها فيسبى دهشة كبيرة . . وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

ومن ذلك كثير وكثير . . . ولست نادما على الساعات التى اقضيها مع هؤلاء المهمومين ويخيل لى أنها الساعات أو اللحظات القليلة المثمرة فى حياتى وما عداها فخواء . . .

فان شكوت لك من شىء فليس من هؤلاء . . . وإنما بمن يلح على بالاستماع اليه بعد أن استنفدت كل قدرتى على الاستماع والتفكير . . . ومن يفاجئنى بطلب الاستماع اليه والتفكير معه . . . وانا فى معسكر الاعداد الخارجى الذى أقيمه كل صيف لمدة ٣ أسابيع بين لندن وباريس كما تفعل فرق الكرة الشهيرة ، وبناء على نصيحة طبيب صديق لى .

ففى هذا «المعسكر» وهو اجازتى الوحيدة القصيرة أتوقف تماما عن التفكير فى همومى وهموم الآخرين طلبا للصحة النفسية ولاستعادة نشاطى استعدادا للموسم الجديد ا ولولاه لخللت ضيفا على عيادات الطب النفسى مريضا بالاكئاب .
لهذا فقد انزعجت بشدة حين ذهبت الى مكتب الأهرام بباريس فى الصيف

الماضى لموعد مع صديقى شريف الشوباشى مديره ، فوجدته قد اعد لى «مفاجأة» صغيرة . . سيدة مصرية مقيمة بباريس علمت بوجودى من المكتب فطلبت ان تقابلنى لتروى لى مآساتها الدامية . . . ومع ذلك فقد انفردت بها ٣ ساعات وسمعت منها ما يوجع القلب . . . وقدمت لى علبة المناديل الورقية فاستهلكت نصفها ثم «خطبت» فيها لمدة ساعة كاملة وانا الح عليها بأن حل مشكلتها الوحيد هو أن ترحم نفسها من تجرع هذا الهوان وهذا الايذاء من مطلقها الذى تعيش معه فى شقة واحدة بأمر الشرطة الفرنسية إلى أن يفصل القضاء فى القضايا المتعلقة بينهما ، وتعود لمصر ولأهلها بكرامتها ما دام زوجها يصر على ألا يعطيها حقوقها إلا إذا غادرت الشقة وعادت مع طفلها لمصر .

وافرغت فيها كل ما فى صدرى حتى فوجئت بها تنهض وهى تبلغنى أنها ستتصل بالمحامى لتبلغه باستعدادها للتفاهم مع زوجها على العودة لمصر وتقاضى حقوقها منه وديا . . وسر صديقى شريف سامحه الله بهذه النتيجة وساعدها على اتمام اجراءاتها ولكن بعد أن ضاع منى يوم من أيام اجازتى القليلة .

أما صديقى الآخر الذى يؤجر لى كل سنة شقة صغيرة فى لندن . . . ثم لا يبخل برقم تليفونها على من يطلبه من المعارف . . فقد أفسد على صباها جيلاً فى لندن نهضت فيه من نومى مبتهجاً فصنعت قهوتى وجلست أمام التليفزيون أتابع برنامج صباح الخير يا بريطانيا وأنا طروب باحساس الاجازة والفراغ والدعة فاذا بجرس التليفون يرن : فلان ؟ نعم . أنا فلان من ليفربول علمت بوجودك من صديقك فلان أرجو ألا أزعجك بمشكلتى لكنى مثقل بالأحزان ولا أحد يسمع لأحد هنا . . وزوجتى تنغص على حياتى . . وتريد كذا . . وكذا فهل هذا يرضى الله . وما هو حكم الشرع فيها وكيف أتصرف معها . . . وتستمر المكالمة ساعتين يتخللها بكاء يمزق القلب . . ولست اتمزق لشيء أكثر مما اتمزق لبكاء الرجل خاصة اذا كان شيخاً كبيراً ثم تتكرر المكالمة طوال الأيام العشرة التى اقضيها فى لندن . . ويأتينى غيرها من «مكارم» صديقى ومع ذلك فأنى سعيد بما

اختاره لى القدر واخترته لنفسى ودعائى الدائم هو «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» .

وما دامت فى الصحة بقية . . وفى الذهن ذؤابة تراقص . . فلا نامت أعين الجبناء إن تقاعستُ عن قبول قدرى الذى ورائى . . أو قصرت فى السعى الى «شوقى» الذى أمامى .

فقط أريد منك خدمة صغيرة . .

إذا رأيتنى ذات مرة أجرى فى الشارع أسابق الريح وطرف جاكتنى يتطاير فى الهواء ورائى ومن خلفى رجل أو سيدة تطاردنى بكل قوتها فلا تظن بعقلى الظنون . . ولا بشرى أيضاً فتعتقد مثلاً أنى لا سمح الله قد خطفت شيئاً ممن يطاردنى .

إنها فقط حالة الواحد فى المليون التى أخشاها إذا صادفنى فى الشارع مهموم وقد نفدت كل قدرتى على الاستماع والتفكير وأصر اصراراً شديداً على أن أسمعته رغم فشل معسكرى الخارجى فى تلك السنة !

هذا هو ما أطلبه منك فقط وشكر لك أن سمعتنى بصبر ولم تطلق ساقيك

للريح بعد ! ■

باريس .. الحب .. والعذاب !

■ ها هي باريس تبدو من نافذة الطائرة لوحة سيرالية جميلة نابضة بالحياة والحركة ! للمرة العاشرة أو الحادية عشرة لم أعد أذكر على وجه التحديد . . لكنني أعرف فقط أنها بالنسبة لي قد أصبحت ضعفى الذى أغالبه فيغلبنى . . وخطيئتى التى أدعوربى أن يغفرها لى فلا يغفرها . . وأظل معذبا بالبعد عنها إذا ابتعدت ولا بد أن أبتعد . . وبالقرب منها إذا اقتربت وقليل ما أقرب !
إنها امرأة ساحرة لعوب كثيرة العشاق لا تصد عشاقها عنها ولا ينالون منها مآربهم . . فيظل حبها ملتهبا في القلب لا يطفئه وصال . . وما من مرة غادرتها فيها إلا وعاهدت نفسى ألا أعود إليها مرة أخرى ، فقد عرفتها بما فيه الكفاية .
فلا تمضى ستة شهور على رحيل عنها حتى أجدنى قد بدأت أعيشها في خيالى . .
إنها ضعف العاشق . . واستكانة المغلوب على أمره . . ومكابرة من يتمنى في اهماق نفسه ان يتخلص من عشقه المعذب ولا يستطيع فيتساءل مجيبا نفسه بغير سؤال «من قال إنى قد كرهتها؟» .

وفى كل مرة اصل فيها اليها تغادر السيارة مطار شارل ديغول فأتأمل الطريق الى المدينة بحنين غريب . . وأترقب ظهور اول شوارعها . . واول مقهى من مقاهيها وترن فى اذنى كأنى أسمعها بوضوح الاغنية الشهيرة : صباح الخير يا باريس . . او بونجور باري . .

أبحث عن فندقى الصغير بالقرب من الشانزليزيه الشهير وأتوجه اليه غالبا بغير حجز مسبق . . وأتلقى بعد التحية المعتادة نفس النظرة اللائمة من صاحبه لانى لم اتصل به تليفونيا مسبقا وأحرص على حجز غرفتى قبل وصولي بوقت كاف كما

يفعل المتحضرون ، لكن لا بأس فسوف يجد لي غرفة لليلة أو ليلتين قبل ان تخلو لي غرفة مناسبة ! والغرفة المناسبة لي هي ان يكون بها مكتب ملائم يتسع لكتبي وأوراقى التى احملها معى اينما سافرت كأنها كتب على الشقاء بها في اركان الأرض الأربعة . . ثم أن تطل الغرفة على الشارع لأرى البيوت الفرنسية بطرازها المعماري القديم من حين الى حين ولا يهمنى بعد ذلك شىء آخر فكل الغرف عندي سواء . . وكلها ضيقه بلا تمييز كأنها اقتطعت من لحم حى وليس من جمد . .

لم أسأل نفسى ابدا لماذا احببت باريس ولم احب جنيف مثلا مع أن جنيف أهدأ وأنظف وأجمل ، ولا لماذا احب لندن بسماؤها الضبابية وشوارعها الكثيفة في حين لا يحبها كثيرون غيرى . . فان كان لحيى لباريس ألف سبب فلكرهى لها ان اردت ان اكرهها ألف سبب آخر يكفى كل منها لأن اغاضبها وانحرر من عشقها . . ولكنه الخائن الذى فى صدرى والذى يغفر لها كل ما تفعله بهى ويلتمس لها فيه العذر . . وسأروى لك فصلا واحدا من فصولها الباردة معى !

فلقد جئتها هذه المرة معتزماً ألا أقيم فى فندقى المعتاد . . وأن ألبى دعوة صديق مصرى ينتقل بين فرنسا وامريكا للاقامة فى شقة صغيرة له فى ضواحي باريس خلال فترة وجودى بها . . وغيابه هو فى امريكا . . وقد سعدت بالدعوة ووجدتها فرصة للانفراد بنفسى فى شقة هادئة بعيدة . . وكلما نازعتنى نفسى الى الخروج . . ذهبت الى وسط المدينة او حججتها الى مزاراتى فى باريس كمتحف اللوفر ومقهى كلونى فى الحى اللاتينى وساحة السوربون او طفت ببيت فولتير ، او استمتعت بالجلوس فى مقهى «الدوم» فى حى هونبارناس الجميل الذى كان يجلس فيه توفيق الحكيم . . وجلس فيه عدد كبير من اكبر ادباء وفنانى فرنسا . . ويزين المقهى جدرانه الداخلية بصورهم وهم جلوس فى المقهى من فرانسوا موريلاك الى اندريه جيد وجان انوى ويكاسو . . او بحثت عن المقهى الذى كان الاديب والفيلسوف الوجودى جان بول سارتر يجلس فيه مع سيمون دى بوفوار الى جانبه جهاز التليفون الخاص به يتلقى عليه مكالماته او تمشيت على ضفة نهر السين فى الحى

اللاتيني اتأمل اكشاك الكتب القديمة المعلقة على جدار طواره واشترى المزيد والمزيد من لوحاتها الفنية المنسوخة عن لوحات فنية عالمية شهيرة كما افعل كل مرة . . وكان صديقى قد ترك لى مع صديق آخر مقيم بباريس نسخة من مفتاح الشقة في مظروف يحمل عنوانها واسم وعنوان وتليفون صديق ثالث له بباريس لديه نسخة اخرى من المفتاح اذا ما واجهت اى مشكلة . .

ووصلت الى بباريس في موعدى فوجدت صديقى شريف الشوياشى مدير مكتب الأهرام بباريس في انتظارى ومعه المظروف بالمفتاح والعنوان ، وحاول صديقى شريف ان يصحبنى معه الى المكتب لينهى عمله فيه ثم يدعونى للغداء في احد مطاعم الشانزليزيه كما اعتاد ان يفعل في كل مرة لكنى كنت اكثر اصرارا هذه المرة على ان يكون يومى الأول في بباريس للراحة واستعادة النشاط . فاستجاب لرغبتى لأول مرة ، وغادر السيارة امام المكتب وطلب من السائق ان يحملنى الى الواحة الصغيرة التى تنتظرنى لافتح حقيبتى ثم اغفو لساعة وساعتين قبل ان نلتقى في المساء . . وشكرت له في اعماقى استجابته لالحاحى هذه المرة . . وانطلقت السيارة في شوارع معذبتى تبحص عن العنوان الجديد . . وبعد تبحث قصير توقفت امام عمارة حديثة . . ونزلت ومعى سائق السيارة لتأكد من الشقة ثم يحمل الى حقيبتى بعد ذلك ، واخرجت المظروف وتأكدت من رقم الشقة . . ومن وجود المفتاح به وحملنا المصعد الى الدور السادس وبحث عن الشقة الى ان وجدتها ثم وضعت المفتاح في قفل الباب . . وأدبرت المفتاح فانفتح الباب رويدا رويدا فاذا بى اجد شابا فرنسيا جالسا على مقعد صغير امام مائدة خشبية صغيرة . . وهو والمقعد والمائدة كل الاثاث الذي يبدو فى الصالة . . والشاب الجالس لاويا عنقه تجاهى ينظر الى مذهولا وأنا أرقبه فى صمت ودهشة لمدة لحظات . . قبل ان أفهم الموقف واعرف انى قد جئت فى موعد غير ملائم وان صديقى لا بد انه قد اعطى مفتاحه لهذا الشاب الفرنسى ليقيم فى شقته خلال سفره فأدى سوء التخطيط الى هذا الموقف المحرج وبغير ان استوعب الموقف تماما وجدت نفسى اقول للشاب :

بونجور موسييه ! فيجيبينى وهو لا يزال متجمدا على مقعده لافتنا عنقه تجاهى . .
 فأنحنا فاه فى دهشة : بونجور موسييه ! وانتظرت ان يتكلم فلم يتكلم . . واطنه
 انتظرنى ان اتكلم فلم اجد ما اقله . . لكن عقلت بدأ يتحرك بعد قليل فقررت
 التخلى عن حلم الاقامة فى شقة صغيرة فى باريس والعودة على الفور للبحث عن
 مكان لى فى فندقى المعتاد . . لكن لماذا يظل هذا الشاب لا ويا عنقه تجاهى كأنها قد
 تجمدت على هذا الوضع الغريب ؟ . . ولماذا لا يحاول ابداء اى تفسير لوجوده فى شقة
 صديقى الذى اكد لى انها ستكون خالية فى هذا الوقت ؟ وفقدت الأمل فى ان يخرج
 الشاب عن جموده فاستدريت للخروج مع مرافقى معتذرا عن مجيئى فى وقت غير
 مناسب وودعت الشاب قائلا : اوريفوار موسييه ! فأجابنى من «موقعه» التاريخى
 وبغير تفكير ايضا : اوريفوار موسييه ! ثم فجأة حدثت المعجزة وتحرك الشاب
 واقترب منا مترددا ثم تكلم بصوت مرتجف . . فاذا به لا يعرف صديقى صاحب
 الشقة ولا هو ضيف عليه . . وانما هو فرنسى يجلس فى شقته الخاصة التى يقيم بها
 منذ ٧ سنوات ، وقد فوجئ بباب شقته يفتح ! .

سمعت كل ذلك وأنا ذاهل عما يقول . . وبعد لحظات تخيلتها سنوات نظرت
 الى المظروف الذى يحمل رقم شقة صديقى فوجدته ٦٤ ونظرت الى الرقم الذى
 يحمله باب الشقة التى فتحناها منذ لحظات فاذا به ١٦٢ اذن فنحن لسنا فى موقف
 حرج بسبب سوء التخطيط وتضارب موعد زيارتي مع موعد زيارة هذا الشاب او
 اقامته بالشقة . . وانما نحن نواجه كارثة ! فقدت قدرتي على الكلام . . فتكلم
 مرافقى . . وشرح له اننا قادمان من المطار مباشرة الى هنا واننا قد أخطأنا رقم
 الشقة وسنخرج الان للذهاب الى الشقة الاخرى . . الخ . وتوقعت الا يقتنع
 الشاب الفرنسى بشيء من ذلك وان يسرع للامساك بتلابيبنا ، لكن ولدهشتى
 الشديدة سمعت مرافقى يقول له : اوريفوار موسييه والشاب يجيبه بنفس الدهول :
 وداعا ياسيدي !

ثم خرجنا . . كيف خرجنا من هذه المصيدة بلا متاعب مع الشرطة ؟ لا أعرف

وبحثنا عن الشقة رقم ٦٤ وأدرنا المفتاح في بابها فكانت المفاجأة الاخرى انه لا يفتحه بل ولا يدخل فيه من الاصل !

وأسرعنا بالفرار قبل ان يفيق الشاب من ذهوله ويستوعب حقيقة المشكلة . .
 وعدت الى فندقى الصغير فأتزنا من الغنيمة بالنجاة واستغرقت لحظات في النوم ثم
 تنبهت على صوت جرس التليفون يرن بجوارى . . فرفعت الساعة وأنا أئنساب
 وأتساءل عمن عساه قد عرف بوجودى في هذا الفندق بهذه السرعة . . فاذا به
 الصديق المشترك الذى يحتفظ بنسخة من مفتاح الشقة وقد ابلغه مرافقى في المغامرة
 الخطرة بما حدث فخاطبني متعجبا كيف لم يفتح المفتاح باب الشقة وفتح بدلا منها
 شقة اخرى خطأ؟ . . ومحاو لا تفسير ذلك بأن صديقه قد صنع تلك النسخة من
 المفتاح التى تركها لى بالمظروف قبل سفره ولم يسعه الوقت لتجربتها . . وان
 المفتاح الاصلى معه الان وسوف يأتى الى الفندق الان لكى يحمل حقيبتى
 ويصحبني في سيارته الى الشقة ويعطينى مفتاحها السليم فلم اشعر بنفسى إلا وأنا
 اصرخ في التليفون معتذرا بشدة عن عدم قبول عرضه ورفضنا باصرار مغادرة
 فندقى الى تلك الشقة . . وعبثا حاول ان يعرف منى السبب فلم أبح له به وكتمته
 في صدرى ولا عجب . . إذ هل انا مجنون او شجاع الى حد ان اقيم في شقة تلاصق
 شقة شاب فرنسى تساوره الشكوك في ميولى الاجرامية تجاه شقته ! أو على الأقل
 سوف يصادفنى داخلا أو خارجا فيسألنى كيف حصلت على مفتاح شقته . .
 ويطلبني به وربما من باب الاحتياط استدعاني للشرطة لكى اوقع له تعهدا بعدم
 وجود نسخ اخرى من مفتاح شقته .

وسعدت رغم كل ذلك بإقامتى هذه المرة ايضا في باريس . . رغم التهاب
 اسعارها . . وبرودة جوها التى فاجأتني على غير انتظار في نهاية شهر ابريل . .

نماذج .. من البشر = ١

افكر جدياً في عرض نفسي . . على طيب نفسي ا
إنى احب أشخاصاً لم اعرفهم ولم ألتق بهم وليسوا من الاعلام او المشاهير
الذين قد نقرأ عنهم فنحبهم بلا سابق عرفة . . فهل عندك تفسير لهذه الحالة؟
سوف تسألنى بالطبع كيف اذن احببتهم بغير أن تعرفهم فأقول لك اننى غالباً
اكتشفهم في بطون كتب السير الذاتية للمفكرين والأدباء فأتوقف عند بعض
النماذج البشرية التى التقوا بها في رحلة الحياة وتأثروا بها فأسرع بالتقاطها وتسجيل
ملاحظها في اوراقى واحس بعلاقة انسانية تربطنى بهم تتراوح عادة بين الاعجاب
بهم . . والعجب منهم . . وحين جلست لأكتب مقالاً هذا تراءت لى بعض هذه
النماذج ففكرت في ان اقدمها اليك .

واحد منهم لم اعد اذكر الآن اين قرأت عنه لكننى ضممته الى قائمة اصدقائى
منذ زمن طويل اسمه الشيخ حسن الطويل وكان من علماء الأزهر في اواخر القرن
الماضى . . ومن العلماء المتنورين التقدميين في وقت يغلب فيه على الأزهر
الجمود . . وكان يقرأ الفلسفة وعلى معرفة بالرياضيات ويحل لطلبة دار العلوم ما
يستعصى عليهم حله من التمرينات الهندسية وكان ذكياً وحكياً وذا نظرات
صائبة في الحياة وعلى معرفة بالدنيا والسياسة وشجاعاً في الرأى يتكلم بها يعتقد ولو
ادى ذلك الى فقدته لمنصبه وكان معترراً بنفسه اعتزاز العلماء بالأصلاء بعلمهم رغم
فقره وزاهد في الدنيا يرتدى قفطاناً من البفته الرخيصة وجبة من نفس القماش . .
وينبهه زملاؤه ذات يوم الى أن على باشا مبارك وزير المعارف سوف يزور دار العلوم
ويرجونه ان يرتدى ملابس لائقة بالاستقبال فيغضب لكرامته ويقول لهم : اذن

سأبعث لكم بجبة من الصوف وقفطاناً من الحرير ليكونا في استقبال الباشا . . أما إذا اردتم حسن الطويل فهذه هي ملابسه ! وكان لو دعى إلى موائد الأغنياء في رمضان لا يذوق منها إلا الفول المدمس ويصادق صاحب مقهى بلدى من جيرانه ويخلص كل منهما الود للآخر . . ثم يطرد من منصبه بدار العلوم بسبب كلامه في السياسة فينقطع مرتبه وهو مورده الوحيد . . فلا يتردد صاحب المقهى الشهم وهو أيضاً من أصدقائى في ان ينهض لأداء واجبه كصديق ويقوم بالانفاق على الاسرتين معا ويبعث بصييه كل يوم ليشتري لوازم بيته ويبت صديقه بالتساوى ، ويقبل الشيخ مساعدة صديقه لأنه ليس بين الأحياء حرج في حين يرفض مساعدة اثرياء عصره لأنها اعانة تأباها نفسه الحرة كعالم ثم يعود الشيخ إلى عمله فإذا قبض مرتبه سلمه لصديقه بأكمله لينفق منه على البيتين كما كان يفعل وهو مطرود . . ويصر على ذلك لفترة مساوية تماماً لشهور الأزمة .

ويواصل إلقاء محاضراته في الأزهر في الفلسفة والمنطق ويحضر دروسه نخبة من التلاميذ من بينهم الإمام محمد عبده ، ويتهمة المتحجرون بالزندقة هو وتلاميذه فلا يأبه لهم ويطالب تلاميذه بالآلا يلحقوا إليهم بالآلا ويأن يواصلوا طريق المعرفة بلا خوف من اتهام ويأن يحكموا العقل دائماً في كل ما يعرض لهم فلا يقبلوا مما يقرأون إلا ما يقبله ويرفضوا ما يرفضه . . ولو كان مطبوعاً بهاء الذهب . . ويضحك من احماقه حين يروى له الإمام محمد عبده انه غضب في شبابه على كتاب من الكتب الصفراء قرأه ولم يعجبه فأوقد فيه النار وطبخ به عدساً فكان ألد عدس أكله في حياته . . فيقول له الشيخ : اتعرف لماذا كان شهياً . . لأنه طهى بنار الجهل !

أما هذا الصديق فأمره عجيب حقاً . . فقد تعرفت عليه من ابنه في كتابه الفريد «سجن العمر» . . فهو المستشار اسماعيل الحكيم والد الأديب الكبير الذى ظلمته جائزة نوبل وتجاوزته . . توفيق الحكيم وقد رسم له الأديب الكبير صورة فريدة كما يكتب الأدباء عن شخوص حياتهم بلا حرج فقد كان صاحب خبرات عجيبة ومتنوعة في كثير من مجالات الحياة ويحرص على ان يتغلغل في تفاصيل الأشياء كأن

كل ما يصادفه في الحياة قضية عليه ان يدرس كل جوانبها قبل ان يصدر الحكم فيها . فهو يعرف بالضبط كم طوبة تلزم لبناء غرفة من حجم معين ، وكم كيلو من البذور تلزم لزراعة فدان بالقطن أو القمح . . . ويقرأ في القانون والطب والأدوية والنجارة والحدادة والعطارة واللغة العربية والنحو والشعر وقواعده وبحوره ، وفي شبابه ابتكر سيجارة محشوة بأوراق شجر الفاكهة بدلاً من التبغ ! . . . ويحمل ساعة يد يقدمها عشر دقائق لكى تكون لديه دائماً عشر دقائق مدخرة للطوارئ . . . واذا سار مع ابنه الشاب في الشارع توقف فجأة ليسأل ترى ما هو عرض واجهة هذا البيت او ما هو عرض هذا الشارع ثم يشرع في قياسه بعصاه التى يحملها دائماً والمضبوطة بدقة على المتر الهندسى الاصلى بمصلحة المساحة !

ويسأله ابنه لماذا . . . هل سنشتري هذا البيت فيجيبه متعجباً : مجرد معرفة يا أخى . . . كل شيء تعرفه في الحياة يفيدك ذات يوم !

وهذا صحيح لكنه لم ينطبق كثيراً على تجاربه العملية اذ انه مع كل هذه المعارف والخبرات كان اذا اقدم على تنفيذ فكرة من افكاره غرق فيها وغرقت معه الأسرة في بئر بلا قرار فلقد كان للأسرة بيت بالاسكندرية ورأت ذات يوم ان تجرى فيه بعض التحسينات ورفض الأب أن يستعين بمهندس لأنه يعرف كل شيء . . . فما ان بدأ العمل ذات يوم كما كتب توفيق الحكيم «حتى أصبح البناء والهدم في منزلنا شيئاً طبيعياً ومستمرّاً كالأكل والشرب ولمدة اعوام طويلة فلقد احضر ابى البنائين والنجارين وصار يقول لهم شقوا هنا دهليزا وازيلوا من هنا جداراً فما ان يفعلوا ما أمر حتى يجد ان الباب بدلاً من أن يفتح على الردهة قد فتح على المرحاض وان الجدار الذى ازيل قد جعل المطبخ في الصالون ! فيعود يأمرهم من جديد بسد ما فتحوا . . . وانتهى بنا الأمر إلى أن صار البنائون والنجارون والمبيضون مقيمون إقامة مستمرة لأن العمل لا ينتهى ولا يمكن ان ينتهى فالتخلدوا لأنفسهم حجرة قرب باب الحديقة يقطنون بها ويبيتون ويسمرون ويأتى لزيارتهم فيها الأهل والأصدقاء !

اما الصديق الثالث فلقد تعرفت عليه في كتاب «حياتي» للأستاذ أحمد أمين ، وكان يعتبره استاذة الثانى فى الحياة بعد أبيه ، ولم يكن استاذاً أزهرياً ولا مستشاراً خطيراً وإنما كان مدرساً للغة العربية بمدرسة رأس التين الثانوية حين عمل أحمد أمين لفترة من حياته مدرساً بالاسكندرية ، وكان من هؤلاء البشر الذين يثبتون صحة كلمة الكاتب الروسى الكبير انطون تشيكوف من ان «الانسان الشريف مهما كان شأنه لا يمكن ان يكون تافها أبدا» فلقد كان الشيخ عبد الحكيم بن محمد ممن تخرجوا فى دار العلوم ، وكان من هؤلاء الذين يفرضون على الآخرين احترامهم بشجاعة رأيهم وإباء انفسهم ، وكان كما قال احمد امين يعتمد فى دروسه على الحب لا على الارهاب ويحب تلاميذه زملاؤه لآباء نفسه وترفعه عن الصغائر ويترك لتلاميذه حرية الحديث والنقد ولم يكن مدرّس لغة فقط وإنما كان مدرّس تفكير ونقد للمجتمع يشجع الآخرين على التفكير والخلاف معه فى رأى .

وكان مع تصوفه لا يؤمن بالخرافات ويتذوق الموسيقى والشعر والأدب ويلتزم فى حياته بالصدق فلا ينطق إلا صدقا وان اذاه ذلك . . حتى أطلق عليه تلاميذه هذا الاسم الفريد الذى يترجم ضحكه المصرى واعجابه بمن يراه أهلا للاعجاب . . الشيخ الانجليزى ا

. . وانتهدت المساحة قبل ان أقدم لك المزيد من أصدقائى المجهولين فهل تنصحنى بالاستمرار فى البحث عنهم والاعجاب بمن يستحق الاعجاب منهم ام ترى معى ان زيارة الطبيب النفسى قد اصبحت واجبة ا

نماذج من البشر - ٢ -

هل تريد ان تتعرف على المزيد من أصدقائي المجهولين الذين التقطهم من بطون الكتب . .

حسناً . . سأقدم لك عدداً آخر منهم وأرجو ان تلتمس لى بعض العذر فى هذه الهواية الغريبة ، فحين يعز الأصدقاء الحقيقيون أو تباعد بيننا وبينهم الحياة والمسافات فلا بأس من التماس السلوى مع اصدقاء الخيال ا

واحد آخر من هؤلاء تعرفت عليه منذ سنوات بعيدة فى الجزء الثالث من احب كتب الدكتور طه حسين الى وهو سيرته الذاتية «الأيام» وقد كتب عنه انه كان زميلاً له فى دراسة الليسانس بالسوربون فى باريس وانه كان شاباً مجتهداً طيب النفس يدرس ويكد لكنه يعانى من عقدة مع اللغة اللاتينية . وقد تقدم للامتحان اكثر من مرة فما ان يمسك بورقة اللاتينية التى ينبغى عليه ان يترجمها إلى الفرنسية ويقرأها حتى ينهض ويسلم ورقة الاجابة بيضاء من غير سوء وهو يردد لنفسه بيتاً من الشعر اللاتينى عن اليأس والرجاء وينصرف غير محبط ولا منهار وهو يؤكد لنفسه انه لا بد من نيل درجة الليسانس وان طال العناء ، ثم يعيش حياته العادية بلا حزن ولا اكتئاب ويواصل دراسته فى انتظار الفرصة القادمة ، وفى احدى هذه المرات تقدم معه طه حسين للامتحان وكان قد تزوج قبلها بشهور واقام فى شقة متواضعة بالدور السادس من بيت ليس به مصعد بالقرب من السوربون ، فكرر الصديق نفس القصة وغادر الامتحان يردد بيت الشعر اللاتينى . . اما طه حسين فقد واصل الامتحان . . وانتظر نتيجة الليسانس مشفقاً من الفشل وذات مساء كان فى شقته الصغيرة . . حين ظهرت نتيجة الامتحان ونجح هو ورسب صديقه ، فاذا

بهذا الصديق الوفي يقطع المسافة بين السوربون وبيت طه حسين جرياً ويصعد
الأدوار الستة قفزاً ويدق الجرس فتفتح له الباب زوجة صديقه فيزف إليها البشرى
في سعادة طاغية وهو يلهث ويرفض الدخول ليستريح وإنما يستدير من فوره ليهبط
الدرج مسرعاً . . فتلاحقه بكلمات الشكر وهو يهبط ثم تتذكر أنه زميل زوجها
فتسأله عن نتيجته فيجيبها بنفس النبرات المبتهجة التي أبلغها بها خبر نجاح شريك
حياتها : رسبت . . ولكن غداً يوم جديد ! وتعود الزوجة الشابة إلى زوجها
متعجبة لهذه الروح العالية وتتمنى لزميل زوجها التوفيق ، أما هو فإنه يواصل
كفاحه بلا ملل . . وبلا لوم للظروف . . وبلا احساس بالنقص . . وبلا غيره ممن
تقدموا عليه وكان هو من قبل يتقدمهم . . لأنه لا لوم إلا لنفسه . . ويتقدم
للامتحان مرة بعد مرة حتى إذا تسلم ورقة اللاتينية ذات امتحان يعرف على الفور
أن يومه المنتظر قد جاء فلا يتركها إلا وقد أتم ترجمتها على أحسن ما يرام وينال
درجته التي طال انتظاره لها واستحقها بكفاحه وصفاء نفسه وترفعها على الحقد
والغيرة والكراهية ثم يفتح الطريق بعد ذلك أمامه ويحصل على الدكتوراه ويعود
لبلاده ليعمل استاذاً في جامعاتها وقد اقترن اسمه باسم الجامعة التي أمضى سنوات
طويلة وهو يجاهد ظروفه فيها لينال شهادتها . . فاذا باسمه الذي يتصدر مؤلفاته
العلمية ومقالاته بعد ذلك وإلى أن يرحل عن الحياة هو الدكتور صبرى
السوربونى !

ترى أما زال في الحياة من يواجهونها بهذه النفس العالية التي لا تنصرف عن
أهدافها إلى لوم الآخرين أو الحقد عليهم ؟

أما هذا الصديق فهو ليس شخصية حقيقية ، وإنما شخصية نسجها قلم
الروائي والشاعر الفرنسى العظيم «فيكتور هوجو» في رواية لم تنل شهرة باقى
أعماله هي رواية «الكادحون في البحر» ففي هذه الرواية روى هوجو قصة طويلة
عن شاب اسمه جيليات أحب فتاة جميلة اسمها دورشيت حبا صامتاً بلا أمل ثم
جاءته الفرصة حين أعلن عمها الثرى وولى امرها عن مكافأة لمن يغوص في البحر

ويستخرج ماكينات سفينة له غرقت قرب الشاطئ، فيكون له الحق في ان يتزوج دورشيت ، فيتقدم جيليات للمهمة الصعبة ويكابد أهوالا مريرة في الغوص إلى قاع البحر وينقذ خلال محاولته الأولى قسيساً شاباً من الغرق ، ثم يصل بعد كفاح مرير إلى السفينة الغارقة ويستخرج منها صندوقاً من المال ، كان صداق دورشيت قبل ان تغرق السفينة ، ويعود جيليات حاملاً المال سعيداً ليزف البشري إلى دورشيت وعمها . . فيلمح من النافذة حبيبته تعانق القسيس الشاب الذي انقذه من الغرق ، فيعرف ان قلبها قد اختاره وانه لا مكان له في قلبها . . فيسلم المال للعم ويرجع ويترك دورشيت لهواها ويتنازل عن حقه في الزواج منها ، وتتزوج فتاته الجميلة من حبيبها ويرحلان معا بالسفينة إلى انجلترا . . ويحرص جيليات على أن يلقي عليها النظرة الأخيرة فيقف على صخرة في الماء يرقب سفينة حبيبته وهي تبعد رويداً رويداً . . ويرتفع المد فيصل الماء إلى ركبتيه وهو مستغرق في النظر للسفينة المبتعدة ، ثم إلى وسطه ، ثم كتفيه ثم يغطيه الماء تماماً ويغرق جيليات بلا مقاومة . . بلا مقاومة راضياً بأنه ان لم يكن قد نال يد حبيبته . . فقد كسب ما يعرضه عنها . . وهو سعادتها ا فرحة الله عليك يا صديقي جيليات فما من مرة قرأت هذا الفصل الأخير من قصتك إلا وتندت عيناى بالدمع ليس اسفا عليك فقط . . وانما أيضاً على قلة امثالك في الحياة ممن يعرفون ان في التضحية لمن تحب بعض السعادة .

وصديقي هذا من شخصيات التاريخ الحقيقية لكن كتبه لا تذكره كثيراً لأنه لم يحكم سوى أربعين يوماً . انه معاوية بن يزيد ثالث خلفاء بنى امية ، وابن الخليفة الضعيف اللاهى يزيد بن معاوية بن ابي سفيان ، فقد مات «يزيد الفجور» . كما روى عنه بعض المؤرخين ، واستخلف ابنه معاوية بعد ان أصبحت الخلافة ملكاً يتناقله الأبناء ، وكان معاوية شاباً صالحاً تقياً . . جاءته الخلافة وهو مريض فاستمر مريضاً ولم يخرج إلى الباب ولم يصل بالناس ولم يضع ودة الملك ، ثم جاءته المنية واحتضر وطلبوا منه ان يستخلف احداً من بنى امية من بعده فرفض ان ينكب

المسلمين باحدهم وهو لا يعرف ماذا سيكون من امره مع الناس . . وألحوا عليه فقال كلمته التي ما ان اقراها كل مرة حتى تذوب نفسي حباً له وأسفاً عليه : «ما أصبت من حلاوتها . . فلماذا التحمل مرارتها؟» يقصد انه لم يذق حلاوة الملك فلماذا يتحمل امام الله وزر اختيار من قد يظلم الناس بعده ، ثم يموت معاوية بعدها - لهفى عليه - وهو في الحادية والعشرين من عمره ، ولو امتد به العمر لكان خامس الخلفاء الراشدين .

وعفوا لهذا الجو الحزين رغماً عنى . . فلأخرجك منه اذن بتقديمى إليك صديقى الجديده هذا . . انه أيضا من اصدقاء الخيال لكنى أرى له في الحياة اشباها كثيرين . . انه ذلك الفتى الصعلوك ضئيل الجسم الذى نسجه قلم ادينا الكبير نجيب محفوظ في كتابه «حكايات حارتنا» فلقد روى عنه أنه كان فتى ضائعاً يمضى أوقاته بلا عمل مع كُلفة من امثاله وقد فتن باحدى جميلات الحارة فاتفق مع زملائه على تمثيلية ينال بها اعجابها ، فتقدم بعضهم لمضايقتها ، ثم جاء البطل المنقذ عباس الجحش . . فصرعهم بضربة واحدة . . وفروا امامه كالجردان فاحست بالاكبار له . . ونشرت قصة «بطولته» عند اسرتها وفي الحارة ، وفوجئ الجحش بصبي المقهى يستقبله مرحباً «بالمعلم» . . فتوة الحارة فدارت رأسه . وصادف ذلك خلو الحارة من فتوة بعد مصرع اخرهم فسأل نفسه ولم لا ؟ فاصطحب الصعاليك رفاقه وتقدم إلى المقهى وجلس في صدارته فاذا بالجميع يحبونه ويحترمونه . . ويؤدون له الأناوات وطابت الدنيا لعباس الجحش . . ونعم بعز الفتونه وجاهاها . . ! وتقدم لخطبة فتاته فاجيب بالقبول على الفور وعقد قرانه عليها وتحدد موعد الزفاف والزفة التى لا بد منها لتتويج بطولته ، وسار عباس في مقدمة الزفة ومن حوله الرجال والشموع . . وعند احدى الحارات افاق فجأة من الحلم السعيد على الواقع المر . . لقد تصدى له فتوة حارة العطوف . . وشهر نبوته يتحداه . . فتوة حقيقى . . وليس وليد المصادفة مثله . . واصبحت فتونه عباس الجحش وحياته في الميزان . . فطارت السكره وجاءت الفكرة . . وترقب

أصدقائه ماذا سيفعل صديقهم ، فإذا به يفاجئهم ويتقدم بجسارة غريبة ويلوح
بنبوته . . فتوقف القلوب تترقب المجزرة القريية . . وواصل عباس جرائته
الشرطانية . . وتقدم صوب فتوة العطوف . . ثم توقف لحظة وفجأة أطلق ساقه
للريح منحرفاً في حارة جانبية . . ومودعا حلم الفتوة الكاذب إلى الأبد وناجيا
بحياته . . واختفى من الحارة فلم يعثر له بعدها على أثر . . وأصبحت حكايته
الغريبة . . نكتة تروى ، وعبرة لكل موهوم .

ترى كم «جحشاً» رأيت في حياتك توهم في بعض الأوقات انه بطل ضرغام
لأن بعض الظروف قد أوهمته بذلك ، فإذا ما تعرض لاختبار حقيقى تهاوى
واندحر وتحول إلى فأر صغير ؟ وترى كم من هؤلاء يذكر بكلمة فولتير الخالدة :
«كثيراً ما رأيت عصفوراً يطير وراء نسر وفي اعتقاده ان النسر إنما يفر منه !»
فتتعجب كثيراً مما قد يصنعه الحمق والغرور ببعض العصافير أو بعض
«الأجاحيش» !

نماذج من البشر - ٣ -

أريد أن أستأنف من جديد سلسلة مقالاتي التي أعرفك فيها ببعض الشخصيات الأدبية والتاريخية التي اكتشفتها من خلال قراءاتي المختلفة وأحييتها واعتبرتها من أصدقاء الخيال الذين أتذكرهم كثيراً وأضحك لفراقاتهم أحياناً وآسف لآلامهم في أحيان أخرى ، ومنذ فترة طويلة والرغبة تلح علي في أن أقدم لك واحداً من أحب هؤلاء الأصدقاء إلى قلبي هو الروائي الفرنسي العظيم الكسندر ديباس الأب ، مؤلف رواية الفرسان الثلاثة . . ورواية كونت دي مونت كريستو التي عرفتها السينما العربية باسم «أمير الانتقام» وغيرها من الروايات الشهيرة ، وهو شخصية فريدة في إنتاجه . . وفي حياته الشخصية العجيبة فحين ولد صاح أبوه معجبا : يا إلهي لقد انجبت طفلاً كأنه رجل ! فقد كان وزنه تسعة أرطال وطوله ١٨ بوصة «أي حوالى نصف متر» ويتمتع بقوة جسدية كبيرة . وفيما بعد وصفه أحد النقاد فقال عنه انه كان قوة من قوى الطبيعة لا أحد يماثله في جريان قلمه بسهولة كأننا لا يكتب !

وليست هذه فقط أهم ملاحظه . . فلقد كان حصاناً جاعاً في كل شيء يعمل كثيراً . . ويضحك أكثر ويستمتع بالحياة ويمتدح أصدقاءه بأحاديثه ويشارك في الحياة العامة والدفاع عن الحريات ويشجع ابنه الكاتب الشاب ديباس الابن وينافسه !

في بداية حياته جاهد طويلاً ليقدّم أولى مسرحياته للمسرح الفرنسي ثم كتب مسرحية عن ملكة السويد كريستيانا وقبلها المسرح أخيراً وبدأت بروفاتها وبدأ ديباس يستعد لجنس ثمره كفاحه فاذا بمؤلف مسرحى عجوز ظل طوال حياته

يحاول بلا طائل أن يقدم إحدى مسرحياته للمسرح قد كتب مسرحية عن نفس الملكة وقدمها لنفس المسرح . فماذا يفعل ديباس ؟ لقد سحب مسرحيته بكرم شديد قائلاً : فلنعط الزميل العجوز فرصته لأن يقول كلمته الأخيرة على المسرح قبل أن يودع الحياة ! ولم يحزن ديباس ولم يقلل ذلك من فرصته ككاتب مسرحي فقد قدم له المسرح بعدها عشرات المسرحيات الناجحة . . فمن يفعل مثلاً فعل هذا الفنان العجيب الآن ؟ .

ثم هو دائم الصخب والبهجة والاستمتاع بالحياة حتى في أشد ظروفه معاناة وضائقة اقتصادية يدخل الصالونات الأدبية في باريس فيثير عاصفة من الضحك بتعليقاته الذكية - وإيماءاته اللاذعة - ولا يبدأ أحداً أبداً بأساءة لكنه يستطيع دائماً أن يرد على من يحاول الاساءة إليه بما يسكته !

يقول له الأديب الفرنسي أو نوريه بلزاك «وكان يعتبر الكتابة للمسرح أقل قيمة أدبية من كتابة الروايات الأدبية» : حين يحف نبع موهبتي سأكتب التمثيليات للمسرح ، فيرد عليه ديباس «بأدب» : اذن فابدأ على الفور أولى مسرحياتك ! ويتفاخر أمامه شاب من الأشراف بأصله ثم يسأله ان يحدثه عن أصله فيقول له بكل جدية : ولد أبى في الهند الغربية . . وكان جدى زنجياً . . وكان جدى الأعلى قرداً . . ويبدو ان أسرته قد بدأت من حيث انتهت أسرته !

وتقول له إحدى ممثلات مسرحياته بعد اسدال الستار وسط تصفيق الجمهور لقد صنعت نجاحي . . فكيف أرد إليك جميلك ؟ فيقول لها : هكذا ثم يتزوجها ! ويفتر نجاحه المسرحي قليلاً فلا يئأس ولا يستسلم للفشل والاحباط وانها يطرق باباً جديداً هو تأليف الروايات التاريخية فيصبح بعد قليل من أشهر كتابها ويكتشف في التاريخ كنزاً يحول وقائع الجافة إلى روايات شديدة المتعة والاثارة . . ويغير ويبدل في وقائع التاريخ لتنسجم مع البناء القصصى وينتقده لذلك أحد النقاد فيقول له ببساطة : لا بأس بان تعتدى على التاريخ بشرط ان تنجب منه طفلاً ! يقصد بشرط ان يثمر ذلك عملاً أدبياً له قيمة !

وهو حين يكون مشغولاً بكتابة رواية جديدة يكتب واقفاً من الساعة السابعة صباحاً إلى الساعة مساءً بلا توقف ويرد على تحية أصدقائه ملوحاً بيده اليسرى ويده اليمنى مستمرة في الكتابة ويعايش شخصيات روايته في خياله ، ويزوره أديب انجليزى وهو منهمك في الكتابة فيسمعه من خارج غرفة مكتبه يضحك ضحكة صاخبة فيسأل خادمه عمن معه في المكتب فيجيبه . . لا أحد . . إنه يكتب ويضحك على النكات التى يطلقها أبطال روايته !

ورغم انتاجه الغزير فبيته لا يخلو أبداً من ضيوف على الغداء . . أو العشاء ، ومائدة طعامه يجلس إليها دائماً ١٢ أو ١٥ ضيفاً ، وهو يتقن الطهى ويتفنن فيه ويدعو أصدقاءه في أيام الاجازات للقامة عنده ويرسل إليهم خادمه في الصباح برسالة منه : سيدى يسألکم ماذا تريدون من أنواع الطعام للغداء اليوم حتى لا تظنوا انه لا يجيد سوى طهى الأنواع التى يقدمها لكم !

وهو يريح كثيراً وينفق أكثر وتحاصره الديون ويتردد عليه محضر المحكمة مراراً باعلانات الحجز سداداً للديون المتأخرة حتى كره المحضرين من أعماقه ! ثم يجيئه صديق ذات يوم يسأله المعاونة في نفقات دفن رجل مات بلا عائل فيقدم له ١٥ فرنكا ثم يسأله عنه ويعرف انه كان محضراً باحدى المحاكم . . فيخرج من جيبه ١٥ فرنكا اخرى يعطيها له قائلاً : إذن فادفن معه محضراً آخر ! لكن ديماس عاشق الحياة يواجه منافسة شديدة لم يحسب لها حساباً من قبل لقد أصبح ابنه الشاب كاتباً مسرحياً مرموقاً ، وكتب وهو فى الثامنة والعشرين من عمره مسرحية غادة الكاميليا فاذا بها تطفئ على شهرة كل أعمال أبيه وتؤثر على بريقها ويصبح ديماس الابن حديث المجالس الباريسية . . وتتوزع مشاعر الأب الفنان بين الفخر بابنه والغيرة من نجاحه الأدبى فيحل هذا التناقض بطريقته العجيبة . . فيحتفظ لابنه فى قلبه بكل الحب والفخر بنجاحه الأدبى . . ويطلق لسانه اللاذع متشكياً من عجائب الزمن التى جعلت من هذا الشاب الصغير أشهر من أبيه ! فيقول : لقد انجبت ولدا فتحول إلى ثعبان ! ويرد الابن : لقد كان لى أب فتحول إلى طفل !

وصالونات باريس تضحك لهذه المعركة الأدبية العجيبة وتتابع بشغف محاولة كل منهما ان يتفوق أدبيا على الآخر ولا تعجب لما يكتنه كل منهما لصاحبه من حب يصل إلى ما يشبه العبادة ولا لفخر كل منهما «سراً» بصاحبه أما في الصالونات الأدبية فكل منهما يتحدث عن نفسه فقط !

ويشارك ديباس الأب في ثورة غاريبالدي بإيطاليا وهو في الثالثة والستين من عمره ويعود فيستقبله ابنه في المحطة ويطلب منه أن يعود معه إلى البيت ليستريح لكن الأب الجامح يصطحبه قسراً لزيارة الشاعر الفرنسي جوتييه في منزله . . ويوقظه من نومه ولا يغادره إلا في الرابعة صباحاً ، ويدخل الابن فراشه أما الأب الفنان فيجلس إلى مكتبه ليكتب ثلاث مقالات لثلاث مجلات مختلفة . . وأخيراً يلقي الحصان الجامح بقلمه ليستريح بعد طول عناء . . فيتوجه وهو في الثامنة والستين من عمره إلى بيت ابنه ويقول له : «جئت إليك لأموت» ! ثم يمضى أياماً في الفراش رافضاً الكلام . . فيحزن أصدقاؤه ويقولون ان عقله قد اضمحل . . لكن الابن المفتون بأبيه يرد بآباء : ان عقلاً كعقل أبى لا يمكن ان يضمحل . . فإن كان يرفض الكلام بلغتنا الآن . . فأنما ذلك لأنه قد بدأ يتعرف على لغة الخلود !

ألست محقاً في حبي لشخصية ديباس الأب ، وفي اعجابي بهذه العلاقة الفريدة بينه وبين ابنه ١٩

فوق العارضة !

لى صديق مقيم فى لندن ومتخصص فى إفساد زيارتى لها ولسائر عموم بريطانيا . ولو واتته الظروف والامكانيات وصاحبى فى رحلاتى الأخرى لامتدّ تخصصه إلى باقى القارة الأوربية !

فنحن صديقان منذ زمن بعيد ، ولا أستطيع أن أزور لندن بغير أن أراه وأن يصاحبنى فى فقرات برنامجى للرحلة الذى أعدّه قبل السفر وأعاهد نفسى على الالتزام به لكى احقق أقصى استفادة ممكنة منها . وهو لا يعترض على برنامجى الثقافية والسياحية لكنه لسبب لا اعلمه من نوع نادر من البشر لا يعرف أبداً الوسيلة أو الطريق الذى يؤدى إلى الهدف المنشود . فإذا كان فى القاهرة وغادر بيته مصمماً مثلاً على إنهاء مهمة معينة فإنه قد يعود إلى البيت فى المساء وقد نسى المهمة الأساسية وحقق غرضاً آخر هامشياً لا يفيدّه وربما أضرب به وأخرّ الوصول إلى هدفه الأصل ، وإذا كان فى مصر وأراد الذهاب إلى الاسكندرية لقضاء مصلحة هامة واستعد لذلك وجّهز سيارته وخرج إلى الطريق وكله إرادة وتصميم فقد يجد نفسه فى بورسعيد وليس فى الاسكندرية مع أنه خبير بالطرق وفى سيارته خرائط لكل شوارع الكرة الأرضية ، لكن الأمور تجري معه على هذا النحو وبغير تفسير أو تبرير فقد يغير رأيه فجأة فى منتصف الطريق وقد يلتقى بمن يغيره بالذهاب إلى جهة أخرى فيمضى معه بلا ترتيب سابق ، والنتيجة دائماً واحدة هى ان الهدف الأساسى الذى خرج إليه لم يتحقق وطاشت كرتة دائماً فوق العارضة !

خذ مثلاً ما حدث لى معه حين أردت السفر من لندن إلى مدينة ستراتفورد

لأرى بيت الكاتب الانجليزي العظيم شكسبير ومتحفه فيها ، فلقد جاء ليصبحني إليها بسيارته متأخراً كالعادة عن مواعده بساعتين وطمأنني إلى أننا سنصل رغم ذلك في وقت مناسب ، فانحشرت إلى جواره في السيارة الصغيرة ووصلنا إلى المدينة بعد ساعتين والساعة تقترب من الثالثة بعد الظهر ، فطلبت إليه ان نتوجه إلى البيت مباشرة لكيلا يسرقنا الوقت ويضيع عناء الرحلة بلا فائدة . لكنه طمأنني إلى أن البيت يظل مفتوحاً حتى الساعة مساء وقد عرف ذلك من زيارة سابقة فلا بأس إذن بأن نتجه إلى مطعم لتناول طعام الغداء أولاً ونستريح من عناء السفر ، واستجبت له وأنا غير مقتنع ، لكنني لم أعارض مادمت سأجد ٣ ساعات على الأقل لرؤية البيت وتأمل مخطوطات الكاتب العظيم وريشته التي كتب بها روائعه ومتعلقاته الشخصية . وتوجهنا للمطعم القريب وراح صديقي يقرأ قائمة الطعام باستغراق واحترام شديدين كأنها يقرأ في الكتاب المقدس ، ثم راح كعادته يطيل الحديث مع الجارسون حول أنواع الطعام والخلفية التاريخية لكل نوع ، وجاء الطعام أخيراً فبدأ يتناوله ببطء شديد وتلذذ ويفصل ما بين كل لقمة وأخرى بحكاية طويلة عن أى شيء ، وانتهيت من طعامي وشربت القهوة وهو مازال يتغزل في طبقه الأول ويتحدث ومن حين إلى آخر انظر إلى ساعتى وأهمس له قائلاً: بيت شكسبير !

فيطمئننى ويواصل الكلام حتى انتهى أخيراً من طعامه والساعة تقترب من الخامسة ، وأمام شبك التذاكر في بيت شكسبير، نظرت إلينا الموظفة بدهشة وقالت لنا أن البيت سيغلق أبوابه بعد عشر دقائق لأن موعد إغلاقه هو الخامسة فهل تريدان مع ذلك الدخول ! . والتفت إلى صديقي الخبير بإضاعة الأهداف فوجدته ينظر إلى من وراء زجاج نظارته مرتبكاً ، فزهدت حتى في العتاب ، وطلبت التذاكر لأننى سافرت ساعتين من لندن من أجل ذلك ولن يسمح برنامجى بالعودة مرة أخرى وهرولت إلى داخل البيت ورأيت ما استطعت رؤيته خطفاً وأشفق علينا الحراس فتركونا داخله خمس دقائق إضافية ، وتلهيت عن ضيقى بعد

مغادرة البيت بمشاهدة المسرح الذى لا يعرض إلا روائع شكسبير وتمثاله الكبير فى مدخل المدينة ، ولم يسعنى الوقت لمشاهدة كنيسة الثالوث المقدس التى دُفن بها بعد وفاته فى عام ١٦١٦ وعُدت من ستراتفورد ولم يزاوئنى ضيقى بعد ليس فقط لأن صديقى العزيز قد أضاع جهدى فى السفر بلا طائل وإنما لأنها المرة المائة التى يفعلها فيها معى خلال زيارتى لانجلترا . . ولا هو يتغير ولا أنا أتعلم من تجارى معه وأحترس !

فلقد تكررت القصة معى بكل تفاصيلها حين صاحبنى لزيارة المتحف البريطانى فى لندن ، إذ دخلت جناح الآثار المصرية . . وتوقفت أمام حجر رشيد المصنوع من البازلت الأسود والذى أدى إلى حل لغز الكتابة الهيروغليفية وبدأت أراجع معلوماتى عنه فى كتاب صغير . . وأسترجع كيف اكتشفه ضابط فرنسى من ضباط الحملة الفرنسية على مصر إسمه بورشار فى جدار قلعة قديمة برشيد أراد الفرنسيون هدمها ، وكيف استولى عليه الانجليز الذين هزموا الفرنسيين فى موقعة أبى قير وأرسلوه إلى لندن ووزعوا صوراً من الكتابات الثلاث الموجودة عليه على الجامعات وعلماء الآثار وكانت بالهيروغليفية واليونانية والقبطية ، فشاهد صورها بالمجلات صبي فرنسى عبقري عمره ١١ عاماً اسمه فرانسوا شامبليون وعاهد نفسه على أن يحلّ طلاسم الكتابة الهيروغليفية ودرس فى أكاديمية العلوم بجرينوبل وعمره ١٧ عاماً وتعلّم اليونانية واللاتينية والقبطية والعربية ورسم خريطة تاريخية لآثار مصر التى لم يزرها ، وألّف فى تلك السن قاموساً قبطياً ثم أصبح عضواً بأكاديمية العلوم الكبرى فى فرنسا ، وراح يقارن بين الرسوم الهيروغليفية والنصّين اليونانى والقبطى المجاورين ولاحظ تكرار بعض الصور مع تكرار بعض الحروف ، فتوصّل من ذلك إلى أن هذه الرموز هى لغة وليست مجرد أشكال جميلة وتمكن وعمره ٣٢ سنة من حل رموز الهيروغليفية وأنطق حجر رشيد وتابع جهده من بعده عدد كبير من العلماء حتى تكشفت تماماً كل أسرار اللغة الفرعونية فلم أكد أستغرق قليلاً فى تأمل الحجر ومراجعة المعلومات حتى رأيت

يجذبني من ذراعى لتناول وجبة سريعة في الخارج مع تأكيدات جازمة بأننا سنعود سريعاً ، وان المتحف يبقى مفتوحاً حتى . . . إلخ . فخرجنا وعدنا فوجدنا الحراس يمنعون الدخول لأن موعد الاغلاق كالعادة كان أقل مما يعرف ويؤكد صديقي بساعة .

وتكررت نفس النظرة اللائمة منى إليه ونفس النظرة الحائرة المرتبكة من وراء زجاج النظارة منه ، وهكذا في معظم الزيارات التي صاحبنى فيها رغم حسن نيته وعزمه الصادق على أن يساعدنى في تنفيذ برنامجى الثقافى ، لكن حسن النية وحده لا يكفى أحياناً كما تعلم ، وقد تفوق على نفسه في سوء التقدير والتنظيم ذات مرة حين أردت السفر من لندن إلى أدنبرة عاصمة اسكتلندة لأراها لأول مرة ، فأقنعتنى بالسفر إليها معه في السيارة وأكد لى أن المسافة التي تزيد على ألف ومائتى كيلو متر لا تستغرق سوى ٧ ساعات في سفر مريح ! فإذا بدأنا الرحلة في الصباح المبكر فإننا نصل إليها بعد الظهر ونستمتع بمشاهدة المدينة ومعالمها لعدة ساعات قبل النوم ثم نهض مبكرين فنزور قصر ملكة اسكتلندة مارى ستيوارت التي عاشت ٤٥ عاماً فقط تزوجت خلالها مرتين وحفلت حياتها القصيرة بالغموض والمؤامرات حتى إنتهت باعدامها بقطع الرقبة في لندن سنة ١٥٨٧ ، فتمضى في زيارته عدة ساعات ونبدأ رحلة العودة في الظهر ونصل إلى لندن في المساء فأبيت ليلتى راضياً ثم يوصلنى في الصباح إلى المطار . ووجدت البرنامج غاية في الترتيب والتنظيم فتحمست لتنفيذه وأعددت حقائبي وانتظرت في الصباح المبكر كما وعد فجاءنى في الظهر وبدلاً من أن نسابق الزمن لبدء السفر . . توقفنا في بداية الرحلة عدة مرات ليتناول إفطاره المتأخر . . ثم ليشرب القهوة ثم . . إلى آخره . حتى حل الأصيل ونحن مازلنا على بداية الطريق السريع إلى أدنبرة . . ولست في حاجة لأن أقول لك أننا بدلاً من أن نصل إليها في الأصيل كما وعدنى قد وصلنا إليها بعد الواحدة صباحاً . وأصبح همنا الوحيد هو البحث عن محل مفتوح نتناول فيه أى وجبة طعام . ولا كيف نمنا كالقتلى من إجهاد الرحلة الشاقة التي لم أتخيل طولها

وإرهاقها حتى ظهر اليوم التالي ، فما أن صبحونا حتى جررتنه جراً بغير إفطار ولا قهوة إلى قصر الملكة ماري وشاهدته خطفاً كالعادة ولم أجد الفرصة لاستمتع حتى بوصف المرشد له وإصراره على أن يرينا وهو يغمز بعينه السلم الخلفى السرى الذى كان يصعد منه صديق الملكة إيرل أوف بثول ليقابلها خلصة ، ثم جررتنه جراً للتجول فى شوارع أذنبرة والبحث عن أى أسكتلندى يرتدى الجونلة السكوتش الشهيرة لأقنع نفسى بأنى قد زرت إسكتلندة ثم إلى السيارة اللعينة لنبدأ رحلة الشقاء مرة أخرى رافضاً كل توصلاته لأن نتوقف على الطريق ليمارس عشقه الأزلى لهواية الطعام والكلام على المائدة ! وقد حل بى تعب الدنيا بأسرها فلم أستطع حتى أن أغفو لدقيقة واحدة وهيئات أن أفعل لو استطعت وحديث الذكريات لا ينضب خلال الطريق الطويل وإلى أن وجدت نفسى على مشارف لندن فى الصباح فتوجهنا بالسيارة إلى المطار مباشرة بغير نوم وظللت بعدها عدة أيام اعانى من آلام الظهر والساقين واضطراب النوم ، فإن كنت قد سعدت بشيء رغم ذلك «فبمقلب» لم أقصده وإنما دبرتنه الأقدار نيابة عنى ربما انتقاماً من سوء التقدير والتدبير ، فقد توقفت فى بداية رحلة العودة أمام سوبر ماركت لاشرى منه بعض الطعام وعلب العصير فوجدت فى الثلاجة بيتزا جميلة مزينة وملونة فاشتريت منها ٤ لتأكلها خلال الرحلة وعدت للسيارة وكان صديقى يتضور جوعاً فأعطيته واحدة منها واكتفيت أنا بشرب العصير ، وتعجل صاحبى الاحساس بالشبع فطوى البيتزا نصفين ثم قضم منها قضمة هائلة تساوى ثلثها على الأقل وراح يمضغها بتأن وإتقان وابتلعها بسلام . وقضم أخرى وبدأ يمضغها ثم توقف فجأة وقد ارتسمت على وجهه كل علامات القرف وقال لى : إنها عجينة لم يدخل الفرن بعد ! فاندعشت لذلك وأخرجت واحدة منها وتفحصتها فوجدتها فعلاً معدة للبيع لكى يجبرها من يشتريها فى الفرن . . وتنبهت فى هذه اللحظة فقط إلى سر رخص ثمنها بالنسبة لأسعار البيتزا المعروفة ، وانتقلت النظرة الحائرة المرتبكة هذه المرة إلى عيني أنا ، لكنها لم تستقر طويلاً فقد وجدت نفسى اشم البيتزا وأقول له :

فعلاً ما زالت عجينا . . لكن لا تنكر أن خميره جيدة ! وأفرجت عن الضحك
المكتوم الذي كاد يفتك بى
ومع كل ذلك فما أكثر ما استمتعت بجولاتى وزياراتى مع صديقى هذا . . وما
أبأسنى اذا زرت لندن ذات مرة فلم أجده فيها كما حدث خلال زيارتى الأخيرة لها
فلقد افتقدته وافتقدت أنغام الصداقة الجميلة المبرأة من الغرض وتذكرته
«وتذكرت حسن تدبيره» للأمور فى كل مكان زرته وحيداً وأسفت كثيراً لغيابه .
وتذكرت من جديد أنه ما أسهل تعويض البرامج إذا فسدت أو فشلت أما
صداقة العمر فما أصعب تعويضها إذا أفسدها الشقاق أو حكم عليها الزمن
بالفناء .

واحد من البشر !

■ ككل الأطفال كانت له ملاعبه وأمانيه وأحلامه ، وبعكسهم كانت ملاعبه ضيقة وأحلامه متواضعة . فلقد عانى وهو طفل من مرض بالعظام تطلب وضع ساقه في الجبس . ولم يكن في مدينته الصغيرة في ذلك الوقت سوى طبيب واحد للعظام لعله لم يكن متخصصاً فيها لكنه رآها مجالاً أوسع للرزق ، فتوجه إليه أبوه ومعه طفله في الموعد المحدد . وبدأ الطبيب يؤدي مهمته فلاحظ الأب أن الطبيب طلب من الممرض ومساعدته أن يحملا الطفل بين أيديهما ليلف الجبس حول ساقه وهو معلق في الهواء رغم ما يسببه ذلك الوضع من آلام فسأل الأب متعجباً عن سر هذا الوضع الغريب فأجابه بأعرب ما يستطيع طبيب أن ينطق به وأنه قد فعل ذلك حتى لا يتسخ مفرش مائدة الفحص بالجبس ! وثار الأب بكل ما في قلبه من عاطفة تجاه ابنه المريض وعرض على الطبيب أن يضيف ثمن المفروش إلى أتعابه عن العملية مقابل أن يريح ابنه من هذا العناء . فخجل الطبيب من نفسه وأمر بوضعه على المائدة وانتهت المهمة بعد عذاب وعاد الطفل محمولاً إلى بيته ودموعه تسحُّ بلا إنقطاع .

وظلت ساقه حبيسة الجبس شهوراً طويلة كانت ملاعبه خلالها مجرد أريكه في صالة بيت أبيه يجلس عليها طوال النهار ويتلهى بالعباب ساذجة ويضحك من قلب فطر على حب الحياة والناس مهما قست أو قسوا عليه .

وبعد أسابيع بدأ يتجول داخل البيت رافعا ساقه المثقلة بالجبس بجهد كبير ثم بدأ يضيق بسجنه فتحمله «الشغالة» ليرى الدنيا من فوق كتفها وساقه الثقيلة تتدل بجانبه . وطال علاجه حتى استردت ساقه عافيتها واستطاع أن يحركها بحرية وبلا

قيود ، فتخلص من الجبس لكنه لم يتخلص أبداً من آثار سجنه لفترة طويلة داخله ، فقد تواضعت بعده احلامه واستشعر عدم جدارته بأن ينال من الدنيا ما يطمح اليه الآخرون .

وحين انضم الى رفاق الطريق في لعب الكرة رضى لنفسه بمركز حارس المرمى وقد كان مركزا يتهرب منه الأطفال في سنه ولا يقبله أحدهم إلا راغما .
وحين تقدمت به السن قليلا كان تربيته دائما متأخرا في الدراسة رغم ذكائه ، وضاعف من ذلك نكبته في وفاة ابيه وهو لم يتخط بعد العاشرة من عمره وحرمانه من عطفه ورعايته وتوجيهه . وكافح بلا نجاح التعثر في الدراسة لعدة سنوات ثم استسلم لأقداره وحوّل مجرى حياته وخرج الى العمل الحر مخالفا بذلك سيرة اخوته الذين شقوا طريقهم في الدراسة بنجاح . وكعادته في الرضا بالحد الأدنى من الاشياء رضى بعمله غير البراق . ووجد نفسه فيه وتكشفت ملامح شخصيته الحقيقية . كانت ميزته الكبرى انه من ذلك النوع النادر من البشر الذى لا يستطيع احد ان يكرهه اذا اقترب منه او تعامل معه ، فهو على استعداد دائما لأن يتنازل عن رغباته ارضاء للآخرين . ويحركه دافع قوى من أعماقه لأن يطلب قبول الآخرين له ولو ضحى في سبيل ذلك بالتنازل عن حقه أو راحته . ثم هو إلى جانب ذلك نفس صافية مبرأة من الحقد والحسد والغيرة والغيرة والاحساس بالنقص . يرى اخوته الأصغر منه يتخطونه في الدراسة فيرى من واجبه أن يعينهم على امرهم بما في يده ولو بالذهاب لإحضار شهاداتهم الدراسية من المدرسة وتقديم أوراقهم للكلية ، ويسعد بنجاحهم وتفوقهم كما لو كان النجاح والتوفيق قد تحققا له .

ويرى زملاءه الذين واصلوا طريقهم الدراسى وغادروا مدينته الى الكليات الجامعية في العاصمة يعودون لقضاء الصيف فيستقبلهم بالأشواق والأحضان ويسعد بتفوقهم وقد يعين احدهم بشيء يسير من المال اذا شكوا ضيق ذات اليد .
وهو إلى جانب هذا وذاك تتملكه عاطفة أخوية وعائلية فياضة يضاعف منها أنه سريع البكاء ويعبر عن فرحه واشجانه دائما بالدموع ، فاذا سعد بشيء تفرق

الدمع في عينيه فلا تعرف أنفرح لفرحه ، أم تحزن لدموعه ، وإذا حزن لشيء سال دمه أنهاراً . . وإذا لمته لأى عارض يستحق العتاب أو اللوم لم يجبك بغير دموعه فتندم لأنك أذيت شعوره وإن لم تقصد . وهو يحب الجميع بلا استثناء حتى إذا جافوه وقد تزوج أحد إخوته وكانت علاقته به في ذلك الوقت غير مستقرة وتشوبها ظلال من الجفاء والشك من جانب الأكبر فقوى به أخوه ليلة زفافه يرقص بين يديه بإنفعال عصبى شديد ودموعه تنهمر من عينيه بلا توقف فلم يملك أكثر الحاضرين دموعهم وأولهم شقيقه .

وشكا أحد اخوته من مرض عارض ذات ليلة فأمضى ليله جالساً على مقعد أمام غرفة نومه حتى الصباح خشيه أن يحتاج لشيء ، وكذلك كان يفعل مع كل أفراد أسرته .

وتزوج بعد سنوات شقيقه الآخر وكان قد غادر مدينته الصغيرة الى العاصمة منذ سنوات طويلة وعاد ليحتفل بزفافه في بيت الأسرة ، فأصر على أن يركب فوق ظهر السيارة التى تقله مع عروسه والتى تطوف شوارع المدينة في طابور من السيارات ، وهو لا يكف طوال الطريق عن الغناء والترديد ويقابله المارة وأصحاب المحال وكلهم من معارفه واصدقائه بالتحية والتهنئة فيرد تهنيتهم بقلب سعيد ويبالغ بعضهم في تحيته فيقذفون السيارة التى يحتل ظهرها بالشيكولاته والبنبون والتفاح محبة له . ثم يجلس على المسرح في النادي الذى اقيم فيه الحفل بين يدي شقيقه ليكون في خدمته عند أول اشارة .

وتزوجت شقيقته الصغرى فاعتبر حفلة زفافها واجبه الأول وانشغل باعداد قاعة النادي الذى ستقام فيه ، واعداد المسرح والزينات والبوفيه والفرقة الموسيقية حتى ليواصل الليل بالنهار بلا نوم ضماناً لحسن التنظيم والترتيب ، ثم يبدأ الحفل فيمضى كل وقته وقفاً على قدميه على المسرح يرقب اخته بفرح طاغ أو يرقص أمامها وتغلبه عاطفته تجاهها وتجاه كل اخوته وكل البشر فيبكي ووجهه ينطق بالابتهاج والسعادة .

ثم تدور الأيام دورتها . . ويخفق قلبه بالحب ، ويتوجه بمشاعره الى فتاة من أسرة بسيطة لا تتناسب ظروفها العائلية مع ظروف أسرته ، لكنه يراها ملائمة له مستصغرا شأنه لمجرد انه أخفق في مواصلة تعليمه . وتلوح بواذر أزمة عائلية بسبب اختلاف المستوى الاجتماعي لكنها تتلاشى سريعا ويتفق الجميع على أن يباركوا رغبته ارضاء له واشفاقا عليه من ايلامه أو حرمانه من شيء احبه بعد ان حرمت الحياة من الكثير .

فيعتبر ذلك «فضلاً» عائليا يحمله في صدره لاختوته واسرته ويعبر عن فرحته بتقبيل يدي امه ويدي شقيقه الأكبر ولا ينسى أن يترك على أيديهما أثرا لدموعه ! وتتم قراءة الفاتحة في حفل عائلي محدود انتظارا لعودة احد اشقائه من الخارج بعد ثلاثة شهور لإقامة حفل الخطبة .

ويحقق أول نجاح حقيقي في عمله الحر خلال تلك الفترة وتلوح بشائر النجاح واعدة بالمستقبل السعيد . ويضاعف من جهده في العمل ليحقق لنفسه حلمه بالزواج ممن يحب والاستقرار في عش صغير ، فيشكو لأول مرة من الارهاق وينصحه الطبيب بالاعتدال فيستجيب قليلا ثم يحرقه الحماس من جديد . . وبعد اسابيع يعاوده الإحساس بالإجهاد فينصحه الطبيب بعرض نفسه على آخر معروف في العاصمة . ويطلب هذا فحصه ثم يطلب منه بعض الفحوص والتحليل ويقرر أن يجري له جراحة عاجلة . ويجتمع الاخوة في المستشفى الخاص صباح يوم الجراحة . . فيقوده الممرضون فوق سريره الى غرفة العمليات ويشجعونه بالكلمات التقليدية فلا يخفف تشجيعهم من خوفه الشديد ولا يوقف نهر دموعه .

وتنتهي الجراحة بسلام ويغادر المستشفى بعد أيام ويمضي فترة النقاهة في مسكن أخيه الغائب في رحلة الغربة خارج البلاد ، فيراه اخوته يفتح دولا بملابسه ويتحسس ملابس شقيقه الغائب ويكي حنينا الى الأخ البعيد .

وتقرب فترة النقاهة من نهايتها ويهم بالعودة الى مدينته الصغيرة . . فلا يكاد يستعد لذلك حتى تذبل ورقة شبابه فجأة وتنطوى صفحته ويغادر الحياة . ويروى

من شهدوا لحظاته الأخيرة انه قد أغفى مطمئناً بلا معاناة وبلا ألم ، وقد غطت وجهه ابتسامة حزينة كأنها يغفر بها للعالم ما لقيه فيها من عناء وآلام ، ويُشهد بها الحاضرين على انه لم ينل من الحياة شيئاً ذا بال رغم حبه للجميع وإخلاصه لهم ورغبته الدافقة في السعادة والسلام .

انها قصة واحد من البشر . . عرفته منذ طفولته . . واقتربت من عذاباته الكثيرة وأفراحه القليلة ولم ينجح بَعْدُ الذكرى في ان ينسى مودته ونفسه الطيبة المتسامحة .

ورغم اختلاف الظروف والملابسات فانى اذكره دائماً كلما قرأت قصة أي إنسان انطوت صفحته قبل أن يبدأ في جنى ثمار كفاحه وتحقيق أحلامه فأتحيل لوعته وحسرتة حين يتداعى كالمُتسابق الذي يسقط في الطريق في نفس اللحظة التي يكون فيها خط الفوز قد لاح قريب المنال . وكلما قرأت قصة مماثلة أو اقتربت منها تمنيت لو كنت أستطيع أن أجد لدى بطلها اجابة على هذا السؤال الحائر الذي طرحه ذات يوم الشاعر الأمريكي جيمس آجي : ترى ماذا يكون إحساس الإنسان حين يكون قد أثرى الحياة من حوله بكل هذا الحب للآخرين ثم لا ينال منها أو منهم إلا قليلاً أو أقل القليل ؟ .

دموع .. لا يراها أحد !

تعلمت هذا الدرس في سن مبكرة . . واطننى قد استفدت به في كل مراحل حياتى بعدها . فحين كنت تلميذاً صغيراً في السنة الثالثة الابتدائية . كان فصلنا في مدرسة النجاح الابتدائية بدسوق هو «ثالثة ثان» وكان لنا مدرس يسرف في انتقادنا واشعارنا بسوء سلوكنا بعقد مقارنة دائمة بين تصرفاتنا كتلاميذ صغار «همج» وبين التصرفات الراقية المشالية لتلاميذ سنة ثالثة فصل أول . فنحن بين الحصص نتحرك ونتكلم ونهرج ونضحك أما تلاميذ ثالثة أول فما ان يغادروهم مدرس الحصص حتى يخرجوا كتاب الدرس التالى ويستغلوا فترة الدقائق الخمس الخشالية في قراءة الدرس الجديد وهم جلوس الى مقاعدهم في أدب وذوق وسكون.

ونحن حين يعلن جرس المدرسة انتهاء الحصص نتدافع للخروج من الفصل والمدرسة . . أما تلاميذ ثالثة أول . . فهم يخرجون بنظام من الفصل ويودع كل منهم الآخر متمنيا له يوما سعيداً في ظل والديه ! وهكذا في كل شيء . . نحن اغبياء وهم اذكىاء . . نحن كسالى وهم نشطون تجرى في عروقهم الدماء اليابانية ! نحن فاشلون وهم ناجحون ، حتى خيل الى لفترة طويلة انهم ليسوا من جنس البشر مثلنا . . وانما من جنس الملائكة واحسست بعجزى وقصورى وتساءلت عن مغزى الحكمة الالهية في ان خلقنا الله من هذا النوع «المنحط» من البشر وخلق ابناء ثالثة اول وحدهم من ذلك الجنس الراقى منهم . واعيانى التفكير فيما افعل لأكون منهم الى ان جاء يوم انقطعت فيه عن المدرسة لمرض ألم بى ثم عدت اليها

ومعى شهادة طيبة بمرضى وخطاب من أبى للناظر يفسر فيه سبب انقطاعى عن الدراسة لعدة أيام . . ودخلت فصلى وبدأت الدراسة ثم جاء الساعى يدعونى لمقابلة الناظر فخرجت معه لأقدم له الشهادة والخطاب ومررت بفصل ثالثة أول وكان مدرسهم قد تأخر فى دخوله . . ووجدت بابه مفتوحاً فلم استطع مقاومة الرغبة فى مشاهدة هؤلاء الملائكة الأبرار لأتعلم من سلوكهم ما يرضى به عنى استاذنا . . ونظرت من الباب المفتوح فإذا بالملائكة يتصافعون ويتضاربون ويتبادلون الركلات والسباب بأعلى الأصوات . . والفصل كله فى هرج شيطانى غريب ولم أر أحداً يجلس الى مكتبه ليراجع الدرس القادم فى هدوء وسكون . . ولا أحداً يتمنى لزميله يوماً سعيداً فى ظل والديه فشككت فى سلامة نظرى . . ومضيت الى غرفة الناظر مذهولاً ودخلت اليه فوجدت مدرس فصلنا واقفاً أمامه وظهره للباب ولا يرانى وفوجئت به يشكو للناظر سلوك فصل الملائكة وشيبتهم وضعف مستواهم الدراسى ويصف له كيف اعيتته الحيل معهم ويطالب بحبسهم لمدة ساعتين عقب انتهاء الدروس ويدافع عن نفسه حين اتهمه الناظر بضعف اشرافه عليهم بأن ذلك غير صحيح بدليل ان تلاميذ فصل ثالثة ثان ممتازون !

واهتزت أشياء كثيرة فى مخيلتي فى تلك اللحظة . . وسقط قناع الوهم أمامى الى الأبد . . وحين كبرت استقرت فى وجدانى الحقيقة التى عرفتھا فى الصغر وتعمقت دلالاتها من خلال تجارب العمر . . فعرفت انه ليس هناك فى الحياة «ثالثة أول» ابداً ولم أتمنّ لنفسى حياة احد غيرى مخدوعاً بالوهم الكبير بأنه من سعداء ثالثة أول وأنا من اشقياء ثالثة ثان . . وأنا قلت لنفسى دائماً : ومن أدرانى أنه فى الحقيقة والواقع كما يوحى به مظهره ؟ ولم اسمح للطموح الضارى بأن يعمينى عن الموجود بالتطلع الى المفقود . . واقنعت نفسى دائماً بأن اؤدى واجبى بكل ما استطيع من طاقة وتقان . . ثم ادع المستقبل بعد ذلك لما تقضى به ارادة الله سبحانه وتعالى . . راضياً بما تحمله الى المقادير ومؤمناً بأنه لا السعداء . . سعداء بنفس القدر من النعيم الذى قد نحسدهم عليه . . ولا المحظوظون محظوظون

بنفس الدرجة التى نتوهمها عنهم بل ولا التعساء تعساء حتى النهاية وبلا أى وجه من وجوه التعويض النفسى عما فى حياتهم من مظاهر الشقاء . . وانما هناك ذلك المزيج الكيماوى المتعادل غالبا من كل هذه الأضداد فى حياة الانسان فلكل انسان من سعادته ما يرضيه . . ومن تعاسته الخاصة ما يشقيه .

ولا اعرف كم من السنوات قد مضت بغير ان اذكر اسلوب مدرسنا القديم هذا فى استشارة حماسنا عن طريق اشعارنا بالغيرة والعجز تجاه تلاميذ مثاليين لا وجود لهم . . الى أن قرأت منذ أيام تلك القصة الجميلة للأديب العظيم انطوان تشيكوف فاذا بها تستدعيها بكل تفاصيلها من ذكريات الماضى وتجدد تأملاتى فيها . . اما القصة فاسمها «دموع لا يراها الناس» وفيها يخرج مجموعة من الأصدقاء من نادى البلدة الصغيرة فى الواحدة صباحا وهم سكارى . . فيبدى الضابط قائد حامية البلدة روبرتوسوف استياءه من ان ذلك النادى لا يقدم الطعام لرواده لأنه ناد صغير فى بلدة حقيرة صغيرة فى حين كان يتناول عشاء بعد الشراب فى نادى المدينة المحترمة التى كان يعمل بها قبل ذلك ، ويشاركه الرأى مفتش المعهد الدينى ونائب مأمور الشرطة وباقى الأصدقاء . . وكلهم من كبار موظفى البلدة . . ويثير حديث الطعام شهيتهم فيروى كل منهم ذكرياته عن اشهى وجبة طعام تناولها فى الفترة الأخيرة فيزداد احساسهم بالجوع وتنتاب الضابط العسكرى نوبة من الشجاعة والكرم فيدعو أصدقاءه للذهاب معه الى البيت لتناول العشاء والشراب . . ويتصايح الأصدقاء مهللين لهذا الاقتراح الجرىء مع اشفاقهم على صديقهم من ازعاج زوجته فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ، لكن الضابط الكبير لا يتراجع عن اقتراحه بعد ان تورط فيه ويصحب اصدقاءه للبيت ويوقف الجندى المكلف بخدمته ويأمره بفتح قبو البيت وإخراج الطعام وزجاجة شراب . . ويجلس الجميع فى صالون الدور الأرضى سعداء . . فيعود الجندى الى الضابط بعد قليل ليبلغه ان باب القبو مغلق بالمفتاح ومفتاحه لدى السيدة زوجته . . فيقول الضابط : بسيطة سأصعد لاحضار المفتاح منها

ويتزايد اعجاب الأصدقاء بقوة شخصيته بينما يتسلل هو على أطراف أصابعه الى غرفة نوم زوجته ويوقظها برفق وخوف وهو يناديها: ياملاكى يا حبيبتى . . آسف لازعاجك ولكن ! فتفتح عينيها عابسة وتسمع ما يريد فتثور عليه ثورة عارمة وتلعنه وتلعن أصدقاءه وتطالبه بطردهم وتذكره بواجباته العائلية وتندب حظها الذى أوقعها فى هذا الزوج المستهتر . . فيتوسل اليها باكيا ان تعطيه المفتاح مؤكدا لها انه لن يأخذ من طعام الاسرة شيئا كثيرا . . وانما سيقدم لكل ضيف «خيارا» واحدة فقط مع كأس من الشراب لأنه فى موقف محرج مع اصدقائه ولا يجوز ان يفشل فى اطعامهم بعد ان دعاهم لذلك . فتضاعف ثورتها وتنهال عليه بالسباب المهين . . ثم تنهال عليه صفعا وضربا وخربشة فى وجهه بأظافرهما وجذبا من شعره . . وهو يبكى ويتوسل لها ويقول : اضرى كما تشائين اضرى زوجك كعادتك . . لكن ارجوك ان لا تفضحينى أمام أصدقائى خاصة وانها المرة الأخيرة التى اتورط فيها فى مثل هذا التصرف . . فلا يخفف تذللها من سخطها عليه وتواصل ضربه حتى تكل يداها من الضرب ثم تنهض أخيراً وترتدى فستانها متأففة ويعود لأصدقائه وهو يسوى شعره ويرتب ملابسه التى تبعثرت خلال الشجار وعند باب الصالون ينفخ صدره ويرسم على وجهه ابتسامة تنم عن الثقة ثم يدخل قاتلا لأصدقائه : ماذا أفعل؟ . . لقد حاولت ان امنعها من النهوض من الفراش لأنها مريضة . . لكننا اصرت على ان تنهض لتقوم بخدمتكم بنفسها!

فلا يتمالك أصدقاؤه انفسهم من اعلان الاعجاب بهذا الحب العظيم الذى يدعو زوجة مريضة للاصرار على خدمة اصدقاء زوجها فى الثانية بعد منتصف الليل لكى تشرف زوجها امامهم . . يا الهى ما هذا الحب العظيم؟ . . ما هذا الاخلاص؟ ويلاحظ احدهم خدشا فى صدغه ويسأله عنه فيبرره له بأنه اصطدم بحافة الفراش فى الظلام وهو يحاذر من ايقاظ زوجته لعلمه بمرضها . . فيزداد الاعجاب بهذا الحرص المتبادل بين الزوجين على راحة الآخر ثم يقطع عليهم

الحديث فجأة دخول السيدة ماشا زوجة الضابط الكبير متهلة فنهضوا جميعا اكبارا لها فقالت لهم والابتسامة العريضة تملأ وجهها :

أوه . . كم هو لطيف منكم ان تحضروا الى بيتنا في مثل هذا الوقت ما دمتم لا تحضرون اليه في النهار . . لقد كنت نائمة . . ثم سمعت اصواتا فسألت نفسي ترى من هم زوار زوجي الحبيب وعرفت منه أنه أنتم فلم أطق البقاء في الفراش لحظة واحدة رغم مرضى . . أوه يا زوجي العزيز كم أنا شاكرة لك ان احضرت الى بيتنا هؤلاء الأشخاص الفضلاء . . دقائق فقط ويكون العشاء جاهزا عن اذنكم . . ثم غادرت الصالون والأصدقاء يتمايلون طربا واعجابا . . والضابط الكبير يتبه فخرا بزوجته وقوة تأثيره عليها !

وتناول الأصدقاء عشاءهم وشراهم في بيت الضابط الكبير في سلام وعاد كل منهم الى بيته مع نسبات الفجر الأولى ، فما ان دخل الى غرفة نومه حتى استيقظت زوجته وانفجرت في وجهه بعاصفة من السباب والتأنيب والتقريع لأنه عاد الى بيته يتمايل من السكر في الفجر ولأنه لا يهتم بزوجته وأولاده ولا يحترم مركزه . . الخ . . الخ . .

فقال كل منهم لزوجته : أليس عندك شيء آخر سوى السباب واللوم والتقريع . . لماذا لا تفعلين ما تفعله السيدة ماشا زوجة قائد الحامية العسكرية ؟ لقد كدت أبكى تأثرا بلطفها مع زوجها وحماسها لخدمة ضيوفه رغم تأخر الوقت ورغم أنها مريضة . . وقد فعلت ذلك لكي تشرف زوجها الذي تحبه وتحترمه أمام أصدقائه . . فلماذا أنت وحدك التي تتصرفين هكذا !

وبات كل منهم ليلته يغط الضابط الكبير على سعادته مع زوجته الرقيقة الملائكية المتفانية في أسعاده . . وينعى على نفسه حظه العاثر الذي أوقعه في زوجته الشرسة النكدية العبوس هذه !

وهكذا كل البشر دائما يتصورون ان الآخرين أسعد حالا منهم ويعذبون أنفسهم ليس فقط بطلب السعادة لأنفسهم وانما أيضا بالأمل في أن يكونوا أكثر

سعادة من الآخرين . . وهو أمل يرى المفكر الفرنسي مونتسكيو أنه مستحيل
لسبب هام هو أننا نعتقد دائماً ان الآخرين أسعد حالاً مما هم عليه في الواقع لكنني
اعفيت نفسي من هذه الرغبة المستحيلة منذ زمان طويل ليس اقتناعاً برأى
مونتسكيو الذي لم اطلع عليه الا منذ سنوات قليلة . .
وانما بفضل مدرسنا القديم الذي تعلمت من حكايته الساذجة أنه ليس في الحياة
«ثلاثة أول» في أى مجال من مجالاتها . . وان كل البشر مثلنا «ثلاثة ثان» لكن أكثر
الناس لا يعرفون أو لا يصدقون ا

مع مرتبة الشرف !

لست اذكر متى على وجه التحديد قرأت هذه الأسطورة التي رواها حكيم صيني . . لكن المؤكد انى قرأتها في وقت مبكر من صباى أو شبابى فساهمت في خلق تلك الحالة الوجدانية التي تجد فيها الآية الكريمة «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» ارضها الخصبة في نفسى . فلقد روى الحكيم الصيني ان شيخا كان يعيش فوق تل من التلال ففر جواده وجاء اليه جيرانه يواسونه في هذا الحظ العاثر فأجابهم بلا حزن : ومن ادراكم انه حظ عاثر ؟ وبعد أيام قليلة عاد إليه الحصان مصطحباً معه عدداً من الخيول البرية فجاء إليه جيرانه يهتفون بهذا الحظ السعيد ، فأجابهم بلا تهلل ومن أدراكم أنه حظ سعيد ؟ ولم تمض أيام حتى كان ابنه الشاب يدرب احد هذه الخيول البرية فسقط من فوقه وكسرت ساقه وجاءوا إليه يواسونه في هذا الحظ السيئ فأجابهم بلا هلع : ومن ادراكم انه حظ سيئ ، وبعد اسابيع قليلة اعلنت الحرب وجندت الدولة شباب القرى والتلال واعفت ابن الشيخ من القتال لكسر ساقه فمات في الحرب شباب كثيرون . . وهكذا ظل الحظ العاثر يمهد لحظ سعيد والحظ السعيد يمهد لحظ عاثر إلى ما لا نهاية في الأسطورة . . واحسبها كذلك في الحياة الى حد بعيد لهذا فأهل الحكمة لا يغالون في الحزن على شئء فاتهم لانهم لا يعرفون على وجه اليقين ان كان فواته هو شر خالص . . أم خير خفى اراد الله به ان يجنبهم ضرراً أكبر . . أو اراد لهم بعده خيراً أعم ، ولا يغالون أيضاً في الزهو والابتهاج بشئء لنفس السبب . . وانما يشكرون السماء دائماً على كل ما اعطتهم ويفرحون باعتدال . . ويمزنون على ما فاتهم بصبر وتجمل . . وما أكثر المواقف التي تذكرت فيها هذه الأسطورة الصينية في حياتى ، لكن هناك موقفاً

منها أكثر طرافة من غيره . وقد جرى لي منذ حوالي عشرين عاما حين رشحتني نقابة الصحفيين للسفر الى المانيا الشرقية في دورة سياسية عن طريق الاتحاد الاشتراكي القديم . وكان أمين الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكي قد عقد اتفاقية سياسية مع الحزب الشيوعي الألماني على تنظيم دورتين تستغرق كل منهما ٦ شهور «لتوعية» شباب العاملين في الاعلام والصحافة في مدرسة الكادر التابعة للحزب . . وطلب من نقابة الصحفيين والاذاعة والتلفزيون ترشيح اعداد من شبابها لاختبار «ثورتهم» أمام لجنة من كبار اعضاء الأمانة بالاتحاد الاشتراكي واختيار اكثرهم تقدمية للسفر في البعثة الأولى . . ورشحتني النقابة ضمن من رشحت وذُهِبَ الى مقر الاتحاد الاشتراكي في موعد الاختبار فوجدت اعدادا كبيرة من الصحفيين والاعلاميين تنتظر دورها للمثول أمام أعضاء اللجنة . .

ثم جاء دوري ودخلت مع اثنين من زملاء احدهما من الاهرام والآخر من مؤسسة أخرى فوجدت مائدة عريضة يجلس إلى جانب منها ٤ اعضاء احدهم مذيع بصوت العرب والآخر محام ناشئ بالاسماعيلية والثالث استاذ جامعي ماركسي معروف أما الرابع فكان من معجزات ذلك الزمان العجيب، فقد تم تصعيده سياسيا بالاتحاد الاشتراكي وفوجئنا به نجما لامعا على صفحات جريدة الجمهورية يقود حملة ضد الاتجاهات «الخيانية الامتسلامية» الكامنة في بعض أجهزة الاعلام وخاصة في الاهرام ورئيس تحريره محمد حسنين هيكل ! ولاحظت بدهشة ان مناضل السويس قد اشاح بوجهه عنا نحن الثلاثة ولم يشترك في المناقشة عزوفا عن ان يخاطب اثنين من «الهيكلين» من أمثالنا أو حتى أن تقع عيناه «التقدميتان» عليهما ! وجاء دوري في المناقشة فسألني الاستاذ الجامعي عن سبب رغبتى في السفر في هذه البعثة . فأجبت بسذاجة وبلا أى محاولة لادعاء التقدمية والثورية بأنها فرصة لي للاطلاع المنهجى المنظم على أسس الفكر الماركسي في مدرسة حزبية تدرسه لطلابها . . وذلك بغض النظر عن اقتناعى به أو عدم اقتناعى . . كما انها فرصة للعودة لحياة الدراسة بعد ان استغرقنى العمل الصحفى

اليومى لعدة سنوات . فالتقط الخيط مديع صوت العرب وقال لى : عظيم . . ما رأيك اذن فى هذا المانشيت ؟ وقدم لى نسخة من الأهرام الصادر فى ذلك اليوم من بداية عام ١٩٧١ وكان لعنوانه الرئيسى ضجة سياسية وقتها . . فقد كانت مهلة وقف اطلاق النار بيننا وبين اسرائيل على جبهة القناة فى حرب الاستنزاف تقترب من نهايتها ورأت حكومة السادات الذى كان قد تولى الحكم منذ شهور قلائل انها غير مستعدة لاستئناف حرب الاستنزاف التى اصابته مدن القناة بخسائر جسيمة ، فنشطت الجهود الدبلوماسية الدولية لمد وقف اطلاق النار ، فى حين كانت مجموعة الاتحاد الاشتراكى التى تفجر الصراع بينها وبين السادات ترى وجوب استئناف معارك الاستنزاف للمحافظة على درجة سخونة الجبهة الداخلية فى مصر بغض النظر عن اية خسائر بشرية أو مادية تنتج عنها . . وفى غمرة هذا الصراع إنحاز رئيس تحرير الأهرام محمد حسنين هيكل إلى جانب السادات فاعتبره مناضلو الاتحاد الاشتراكى جزءا من المؤامرة الامبريالية لتفريغ القضية من محتواها «النضالى» . . . الخ هذه الخزعبلات المعتادة . ثم خرج الأهرام لسوء حظى يوم الاختبار بمانشيت يتحدث عن أن الجهود الدبلوماسية الدولية على أشدها لمد وقف اطلاق النار ، فجعل منه أعضاء اللجنة مادة أساسية فى اختبار ثورية المتقدمين للبعثة فمن أدان الاتهامات «الخيانة الاستسلامية» المتخفية وراء سطره . . كان جديرا بثقة اللجنة . . ومن لم يكتشفها كان لا أمل فى تقديمته أو أحقيته فى الالتحاق بهذه الدورة . .

ونظرت حولى فرأيت المناضلين يركزون انظارهم على بما فيهم مناضل السويس العازف عن المناقشة انتظارا لسماح رأى فى هذه المؤامرة المفضوحة وبغواء لا حيلة لى فيه لأنه يُستنفر فى مثل هذه المواقف ولا أستطيع رده . قلت للسائل : إنه مانشيت صحفى هام يكشف أن هناك جهودا سياسية دولية وسرية تسعى لتأجيل مد وقف إطلاق النار وأنه من الأرجح أن هذه الجهود سوف تتوصل الى ذلك . فقال لى المديع : هذا من الناحية الصحفية البحتة لكنى أخاطب فيك «ثورتك» ألا ترى أن

هذا المناشيت يضعف الروح القتالية لدى الجنود ويثبط الروح المعنوية لدى الشعب المتوثب لاستئناف الكفاح المسلح ضد اسرائيل . . أدركت في هذه اللحظة أن سفري في البعثة معلق في طرف لسانى فاذا أردت السفر ينبغى على أن «أزائد» عليه وإن أخطب فيه خطبة تندد بهذه المؤامرة وتؤكد أن الشعب من اسوان للاسكندرية لا ينام الليل انتظارا لانتهاء المهلة لكى تعود المدافع والطائرات تنز في جبهة القناة مع اختلاف هيئ هو ان مدافعنا وطائراتنا تضرب في رمال سيناء وهى أرضنا ولا تقترب من اسرائيل ومدافعهم وطائراتهم تضرب مدن القناة وتهجر مئات الألوف من سكانها إلى ريف الدلتا المزدهم بسكانه وفجأة أحسست براحة نفسية غريبة وزالت رهبة الامتحان من نفسى واحسست بحرية عجيبة بعد أن تخلصت من رق الأمل والرجاء في البعثة . . وعرفت معنى العبارة التى تقول «اليأس حر» . . والرجاء عبد رقيق» فقلت للممتحن بمتتهى الهدوء والارتياح واليأس من السفر : لا ياسيدي هذا المناشيت لا يضعف الروح القتالية لدى الجنود أو الشعب وليس جزءا من مؤامرة خيانية أو إستسلامية ، والشعوب تقاتل حين تكون مستعدة للقتال وليس من الوطنية أن نسخنها لمعركة ليست قريبة أو نوهما بمعركة لم يثن أوانها بعد ونظل نوقد النار باستمرار تحت مرجلها . . ونستمع بمرآها وهى تتلظى بالنيران بحجة الحفاظ على ارتفاع الروح القتالية . . فاذا جاءت المعركة لم يبق من طاقتها ولا من روحها المعنوية ما تقدمه لها حين تشتد الحاجة لعطائها وهذه الصحيفة صحيفة مصرية تعمل لحساب مصر ولا يمكن أن تكون طرفا في مؤامرة امبريالية أو غير امبريالية على شعبها وجنودها .

وانهيت كلامى وانا في قمة السعادة واليأس !

وجاء الدور على زميلى الذى يعمل بمؤسسة أخرى فانبرى يندد بمحاولات اضعاف الروح المعنوية للشعب كله بمثل هذه الأخبار المندسوسة - ويؤكد ان الشعب كله يريد القتال الآن - لاحظ اننا كنا في بداية عام ١٩٧١ ولم يكن جيشنا قادرا وقتها على خوض المعركة - وانه سمع من مكوجى في أحد المؤتمرات الشعبية

انه لم يقارب زوجته منذ هزيمة يونيو وأقسم ألا يقترب منها إلا بعد النصر - كان الله في عون زوجته ! ولأمانة فان المناضلين لم ينخدعوا بهذه الإكذوبة وتساءلوا باسمين عما إذا كانت هناك أسباب صحية أخرى لهذه الوطنية المفرطة ! .

وخرجت من لجنة الاختبار مرحا ، ونزلت إلى صديقي الذي ينتظرني بسيارته على كورنيش النيل وما أن رأيته اقترب مبتهجا حتى تساءل باسمي : خيرا ؟ فأجبتته وأنا أركب بجواره : كل خير . . رسبت بجداره ومع مرتبة الشرف !

وسافر أعضاء البعثة الى ألمانيا الشرقية ولم تمض شهور حتى كسب السادات الصراع بينه وبين مجموعة الاتحاد الاشتراكي وزج بهم جميعا في السجون ، ودخل كل أعضاء لجنة الاختبار السجن وابتعدوا عن مواقعهم . . أما أعضاء البعثة فقد عادوا بعد أسابيع فوجدوا الدنيا قد تغيرت . . وفوجيء معظمهم بإبعادهم عن مجال الإعلام بكل أسف وبإدراجهم في قوائم السادات السوداء بتهمة عضوية التنظيم الطليعي الذي كان حزبا سريا داخل الاتحاد الاشتراكي وتم اختيار معظم أعضاء البعثة من بين أعضائه أو من المرشحين لعضويته . . ولم أكن من هؤلاء . . وربما كنت من أولئك الذين كانوا مرشحين لاختبار جدارتهم لكنني أفسدت على نفسي كل شيء . . والحمد لله على كل حال فلو كنت قد تمسكت بالرجاء لربما فزت بالبعثة وبما يترتب عليها من تبعات . . ولربما تغير طريق حياتي . . لكنها الأسطورة الصينية القديمة . . والأرض الخصبة التي انغرس فيها تلك الآية الكريمة منذ سنوات طوال فجعلتني في كثير من الأحوال لا آسى كثيرا على ما فاتني . . ولا أرقص طربا لما ينالني من خير . . وإنما أشكر ربي كثيرا وأدعوه أن يكون خيرا حقيقيا لا شر بعده . . آمين يا رب العالمين .

القيثارة!

كان صيفا حزيننا في حياتي فقد فقدت فيه شقيقي الأكبر ورفيق طفولتي وصباي وصديق شبابي ورجولتي ، فأحسست ان جزءا من عالمي الخاص قد فقد بعض رموزه إلى الأبد . فلقد كانت لنا ذكريات مشتركة لا يستشعر أحد غيري وغيره أهميتها . . . ولا يستطيع الحديث عنها إلا معه . . فان تحدثت فيها إليه ومضت في ذكراتنا دلالاتها القديمة وأعدنا مناقشتها والجدال حولها كأنها هي أحداث حاضرة ساخنة تنتظر مني ومنه قرارنا العاجل فيها .

وكانت الأقدار المأساوية قد قضت على بأن ألزمت في أيامه الأخيرة إلى أن إنطوت الصفحة وسقطت أوراق الشجرة ، فشهدت المراسم الحزينة ثم عدت الى عملي وبيتى مهزوما فلم أطق البقاء في مصر وقررت تقديم موعد رحلتي السنوية إلى أوربا لأفر اليها بعيدا عن أرض الأحزان .

وانشغلت بالإستعداد للسفر ورتبت مواعيد سفرى بحيث أعود لبلادي قبل ذكرى الأربعين بيومين فقط . وركبت الطائرة وصدرى مثقل بهيمومه ، وأطلت من نافلتها على باريس التي اعتدت ان استقبلها بالتحفز النفسى للابتهاج بلا أدنى احساس بالبهجة وتوجهت إلى فندقى الصغير الذى اعتدت النزول به كأنها أودى واجبا لا مفر من أدائه ودخلت غرفتى وادرت جهاز التليفزيون الصغير ثم انشغلت عنه بفتح حقيبتي واخراج ملابسى وترتيبها في دولاى الملابس ثم اعادة ترتيب قطع الأثاث الصغيرة في الغرفة بما يتفق مع ذوقى واحتياجاتى خلال فترة اقامتى بها فاذا بى اسمع فجأة أغنية عبد الوهاب القديمة «جفنه علم الغزل» تنساب في عذويه في غرفتى . وتوقفت مشدوها أمامها وخيل إلى أن أحد نزلاء

الفندق من العرب يدير شريط الأغنية في غرفة قريبة من غرفتي فاقتربت من الباب لأحاول معرفة مصدر الصوت وتلفت حولي فاذا بالصوت الجميل ينساب من جهاز التلفزيون الصغير في غرفتي . . . واذا باسم عبد الوهاب يملأ شاشته مسبقا بعباره الموسيقى العربية العظيمة ، بين اسماء أخرى تتتابع على الشاشة بما يوحى بأنها نهاية مسلسل تليفزيوني ، ثم عاد التلفزيون إلى تقديم برامجه الصاخبة ، وعرفت فيما بعد أن التلفزيون الفرنسي يقدم مسلسلا اجتماعياً أسبوعياً تجرى بعض أحداثه في الشرق العربي وأراد أن يوحى بجوّه فاختر اغنية عبد الوهاب الجميله ليجعل منها مقدمة المسلسل ونهايته !

وكان اختياراً موفقاً للتلفزيون الفرنسي . . . وغير موفق بالنسبة لي اذ ما أن انتهت الأغنية التي لم تستغرق أكثر من دقيقتين حتى كانت قد اعادتني إلى كل ما حاولت الفرار منه في مصر .

فقد أثار صوت عبد الوهاب الجميل أشجائي وذكرني ببعض رموز حياتي التي فقدت معناها إلى الأبد مع رحيل رفيق طفولتي وصباي .

فلقد كان عبد الوهاب هو عشقنا المشترك في صبانا وبواكير شبابنا لكنى بتطرفي العاطفي المألوف في ذلك الحين وصلت في عشقي له إلى حد التعصب الشديد فأصبحت الإساءة إلى عبد الوهاب أو إهداء أى انتقاد له جريمة كافية في نظري لكراهية صاحبها أو لمقاطعته !

ولست في حاجة لأن أقول لك أنى كنت اتتبع صور عبد الوهاب في المجلات والصحف وأقصها وأعلقها في كل مكان بغرفتي ، وانى كنت انتظر صدور مجلة الاذاعة المصرية كل اسبوع لأنكب على برامجه المنشورة في دراسة متأنية عميقة بحثاً عن مواعيد إذاعة اغانيه واضع تحتها خطوطاً حمراء لتمييزها والتهويل لسماعها .

ومع ذلك فلم أكن من الجيل الذى شهد شباب عبد الوهاب وانما كنت من الجيل الذى عاصر ظهور عبد الحليم حافظ وكانت آهاته تدغدغ مشاعرهم وتؤرخ لذكريات الحب والغرام في حياتهم وكنت مع شقيقى وعدد من اصدقاءنا من

محمي عبد الوهاب وعشاقه وتفردت بينهم بالتطرف في حبه إلى حد التلذذ
بسماع أحاديثه الاذاعية والترنم بكلماته والإعجاب الفائق بلباقته وذكائه وقدرته
على أن يجد دائما اجابة مهذبة وذكية لكل سؤال .

ومع أن فترة الصبا وبواكير الشباب هي سن الرومانسية والمشاعر العاطفية فقد
كانت الأغاني التي نتحلق حول الراديو لسماعها مع مجموعة الأصدقاء هي قصائد
«دعاء الشرق» و«النهر الخالد» و«فلسطين» . . . وغيرها ! وحين غنى عبد الوهاب
قصيدته دعاء الشرق وهي قصيدة من الشعر العربي الرصين عن احوال الشرق
العربي إعتبرناها حدث العام الفنى ، وحين غنى قصيدة «النهر الخالد» للشاعر
محمود حسن اسماعيل وهي عن نهر النيل إعتبرناها حدث الموسم وكل موسم ،
وحين غنى قصيدة «فلسطين» لأمير الشعراء احمد شوقي بمطلعها الشهير «أخى
جاوز الظالمون المدى» إعتبرناها قصيدة العصر وكل عصر .

وحتى على الجانب العاطفى كانت أحب أغانيه إلى أيضا مما يعتبر من الشعر
العربي الرصين الجميل الذى يصعب فهمه على من آن فى مثل أعمارنا .

ومع ذلك فقد كنا نهم بها ونردها وقد لا نفهم بعض معانيها وبعضها بالفعل
لم استجل كل معانيه إلا بعد أن تخطيت الصبا وادركتني حرفة الصحافة والأدب ،
فلقد كنت متيا مثلا بقصيدة جميلة للشاعر صفى الدين الحلبي هي «قالت» وهي
عبارة عن حوار جميل بين محب ومحبوته يبدأ فيها كل بيت بكلمة قالت فتقول :

قالت تخليت . . قلت عن راحتي !

وتمضى القصيدة على هذا النحو ، وقد ردد عبد الوهاب هذه العبارة بالذات
«قالت تخليت» ٩ مرات ، وكان من إختباراتنا الذكية للمريد الجديد الذى يرغب
فى الانضمام لحلقة عشاق عبد الوهاب من امثالنا هو : اذكر كم مره ردد عبد
الوهاب «قالت تخليت» في قصيدته المعروفة ؟ فان عرف الاجابة فهو مريد صادق
وان لم يعرفها طالبنا بالمزيد من الجهد ليصل معنا الى مرتبة المريد العاشق !

وكثير من اصدقائى شاركونى عشق عبد الوهاب فى تلك المرحلة وكنت

اكثرهم اعجابا بقصيدة عاطفية جميلة له لا أحسبها من اشهر قصائده لكنى لم اسمعها مرة حتى الآن إلا وتسلى الاحساس بالشجن والحزن المبهم الغامض إلى نفسى ، وهى قصيدة «القيثارة» للشاعر الرقيق الذى لم ينصفه زمانه الدكتور ابراهيم ناجي :

أى سر فيك إنسى لست أدري
كل ما فيك من الأسرار يغرى
خطر ينساب من مفترّ ثغر
فتنة تعصف من لفته نحر
قدر ينسج من خصله شعر
زورق يسبح في موجه عطر

أما ختام القصيدة الذى كان يسلمنى دائما لذلك الحزن المبهم وما زال فهو ذلك البيت الذي يقول :

في عباب غامض التيار يجري
واصلا ما بين عينيك وعمري

وحين شبيت عن الطوق وابتليت بإدمان القراءة والكتابة بحثت طويلا عن هذه القصيدة في دواوين ناجي فلم أجد بين قصائده قصيدة اسمها القيثارة ثم عثرت عليها بعد عذاب في ديوان ليالى القاهرة فاذا بها مجموعة من ابیات قصيدة أخرى تحمل إسم الخريف لكن عبد الوهاب اختارها بذوقه الشعري الراقى ولحنها وأسماها القيثارة !

ويكفى للإشارة إلى تأثير الفن الراقى في وجدان الانسان أن أقول لك أنى احببت في صغرى كل المعانى والأماكن التى تغنى بها عبد الوهاب في أغانيه وقصائده ، فأحببت مدينة فينيسيا الإيطالية وحلمت بزيارتها ورؤية جند ولها الأسود الشهير مع قصيدة على محمود طه عنها . وكانت كلمات هذه الأغنية تتردد صامتا في وجدانى حين زرتها لأول مرة وأنا في الثلاثين من عمري ، وأحببت نهر

بردى ودمشق عاصمة سوريا رغم أنى لم أرهما حتى الآن مع كلمات قصيدة شوقى :

سلام من صبا بردى أرق
ودمع لا يكفكف يــــا دمشق

وكان أول ما خطر في ذهني حين زرت بغداد لأول مرة منذ ٩ سنوات هو كلمات قصيدة شوقى التى غناها عبد الوهاب : يا شراعا وراء دجلة يجرى ، وكان أول ما بحثت عنه حين زرت الأقصر لأول مرة في سن الشباب هو معبد الكرنك الذى تغنى به عبدالوهاب في قصيدته الشهيرة ، واحيت جبل لبنان على البعد لأنه على روايه ولدت قصيدة شوقى التى غناها عبد الوهاب :

يا جارة الوادى ظمئت وعادنى
ما يشبه الأشواق من ذكراك

كما ولدت أغانى أخرى جميلة شدا بها صوت عبد الوهاب الجميل لشوقى مثل :

النيل نجاشى . . حليوه اسمر
عجب للونه ذهب ومرمر

أما أغانى عبد الوهاب العاطفية القديمة . . فما أكثر ما أثارت من شجونى وما زلت حتى الآن احس لسعة الغدر وحرقة الإنسان المغدور به كلما سمعت صوته المحروق وهو يغنى موال « فى البحر لم فتكم فى البر فتونى » ! « بالتبر لم بعتمكم بالتبن بعتونى » ! إلى أن يصل إلى وعيد المحب المظلوم لمحبيه الغادر فيقول له :

ان عدت بـالمـره . . هاتوا المر واسقونى

فانظر كم مرة في حياتك وحياة كل انسان احسست بإحساس عبد الوهاب هذا وتمنيت لو كانت لك حنجرته الذهبية لتتشد خائن الود والعشرة هذه الكلمات الباكية . . وتتوعده بهذا الوعيد اليائس ، وانظر كم مرة توعدت ثم عدت وتجرعت المر كارها أو راضيا !

والحق ان تأثير عبد الوهاب علىّ قد تملكني في طفولتي وصباي . . وكان
سحره لي طاغيا في كل شيء . . اللهم إلا شيء هين كان مثار تندر في طفولتي هو
ان اغنيته الشهيرة عن «الميه التي تروى العطشان» ونصيحته الذهبية للمهموم بأن
«صدقني خذ لك حمام» ! لم تكن تقلل من كراهيتي التقليدية كطفل لموعد الحمام في
برد الشتاء في حين كانت تؤتي ثمارها بسهولة في حر الصيف !

وصاحبني هذا التأثير في شبابي . . ثم علمتني خبرة السنين الاعتدال في مشاعر
الحب والكراهية تجاه كل شيء في الحياة ، فتحول تعصبي القديم لعبد الوهاب إلى
اعتزاز ناضج به يسمح لي بأن اعجب بها يستحق الاعجاب فيه وهو كثير . . وأن
اضع كثيرا من الأمور في نصايها الصحيح ، ورغم حبي له الذي صاحبني في كل
مراحل حياتي فاني لم أسع أبدا الى التعرف عليه أو مقابلته أو حتى اجراء حديث
صحفي معه طوال سنوات عملي بالصحافة ، ولم استغرب ذلك من نفسي ، فلقد
اعتدت دائما ألا أسعى للإقتراب ممن اكنّ لهم مشاعر الحب العميق والاعجاب
الشديد بهم ، ربما تهيأ للإقتراب منهم وربما خوفا من ان اكتشف بالإقتراب
الشخصي منهم ما يتناقض مع الهالة التي استقرت في أعماقي لهم فأحزن لذلك
وافقد جزءا عزيزا من وجداني ارتبط بهم لفترة طويلة من حياتي وقد التزمت
بنفسي هذا السلوك مع معشوقي الآخر الذي استولى على وجداني الأدبي والثقافي
ابتداء من أواخر سن الصبا وهو الامتاذ نجيب محفوظ . . ، حتى أني كنت اسعى
إلى مقهى «ريش» في الستينيات لأراه جالسا بين محبيه وتلاميذه وأرفض بإصرار
دعوة اصدقائي لتقديمي له مكتفيا بالنظر إليه من بعيد مع أني اعيش معه في خيالي
كل ليلة ومع انه من الأدباء والفنانين القلائل الذين تزيدك معرفتك الشخصية له
افتتاناً به وبتواضعه وبسجاياه النادرة . ثم دارت دورة الأيام وفاز أدبي المفضل
بجائزة نوبل وأودع نصيبه من الجائزة في بنك مصر في وديعه خصص عائدها
للانفاق في وجوه الخير بشرط أن توجه إلى هيئات وليس إلى أفراد ، واختار
شخصي الضعيف ليكون مفوضا كمشرف على بريد الأهرام في انفاق هذا العائد

مشترطا على عدم الرجوع إليه في ذلك ومع هذا فلم استطع التخلص حتى الآن من تهيبى القديم للإقتراب الشخصى منه . . وقد تعجب اذا علمت ان ذلك كله قد تم وما زال ينفذ منذ عامين وليست بيننا حتى الآن الا الاتصالات التليفونية على البعد ومع كل الحب والاحترام من جانب المريد القديم لشيخه العظيم ا

ثم مضت السنوات وعبد الوهاب يتألق جمالا وفنا وإبداعا في شيخوخته . . وقد استقر حبه له في وجداني كأنه من ثوابت حياتي ، وكلما نظمت الهياث الفنية احتفالا بعيد ميلاده حرصت على متابعتة في التلفزيون باهتمام شديد واعجبت منذ سنوات بأغنية جميلة شدا بها له تلاميذه في أحد هذه الاحتفالات هي أغنيته : «سبحان الوهاب يا عبد الوهاب» واعجبت أكثر بأن فارسي القديم يمضي في شيخوخته بجلال وجمال ويلا متاعب صحبة تحدى هبة الصور القديمة وضحكت من أعماقي حين سأله في احتفال بعيد ميلاده مداع بالتلفزيون : ماذا تطلب من شباب الفن ؟ ، فاذا بعبد الوهاب المشهور بالخوف على نفسه وصحته يقول بعفوية خبيثة : أطلب منهم أولا الا يحسدوني ثم يتبع ذلك بأن يشير بأصابع يديه المفتحتين كالمروحة في وجه الكاميرا قائلا : الله أكبر الله أكبر . . الله أكبر ، فانفجر الجميع ضاحكين وانفجرت ضاحكا في بيتي وهتفت قائلا له كأنه كان يقصدني أنا بهذه الإشارة : ليس حسدا والله . . لكنه حب من القلب ودعاء لك بأن يديم الله عليك نعمة الصحة وجمال الشيخوخة وطول العمر إلى ما شاء الله . وتمنيت من كل قلبي لو كان يستطيع أن يسمعي وان يستجيب الله لدعائي فيطيل عمره لمائة عام أو أكثر وتندرت بهذه القصة طويلا ورويتها لكل من أعرفهم في مصر وفي رحلاتي للخارج .

ثم سافرت منذ اسابيع إلى باريس ولندن في رحلتى السنوية مبكرا هذه المرة عن موعدى بشهرين . وفي لندن سمعت بخبر رحيل معشوقى القديم من التلفزيون البريطاني فاكثبت له . . وزادتنى سماء لندن الكايبه وجوها المكفهر اكتتابا به . ثم اجتمعنا في شقة احد الأصدقاء المقيمين للعشاء فتابعنا من محطة التلفزيون

العربية التي تبث برامجهما من دبی للعرب المقيمين في لندن مشاهد الرحيل
للموسيقار العظيم . . وخيّم جو ثقيل على المكان ونحن نرقب الجماهير الغفيرة
تودع فنانها الراحل بالبكاء وترديد عبارة : لا إله إلا الله فترقرقت دمعته في عيني
ولاحظ ذلك احدهم فسألني : حزنا على عبدالوهاب ؟ فقلت له : حزنا عليه
وعلى أيام البراءة والسعادة وعلى الأعزاء الراحلين وعلى أشياء كثيرة مضت
وانقضت معه إلى الأبد فيا ألف خساره يا أستاذ عبد الوهاب . ويا ألف
خسارة يا كل الأعزاء ويا كل هذه الأشياء الغالية .

لم تأت بعد !

سأظل أرددها وراء الشاعر التركي ناظم حكمت ولن أمل :
«اجمل الانهار لم نرها بعد . . أجمل الكتب لم نقرأها بعد . . اجمل أيام حياتنا لم
تأت بعد !»

فلقد كتبها في رسالة الى زوجته من سجنه يشد بها أزرها وأزره . . ويقاوم بها
اليأس من اجتماع الشمل واستعادة أيام السعادة والحرية ولم تكن كل الظروف حوله
تبشر باحتمال تحقيق ما يصبو اليه ورغم ذلك فلم تمض فترة طويلة حتى خرج من
سجنه وانشد مع زوجته اناشيد السعادة .

ومنذ قرأت هذه الأبيات الجميلة وأنا أستعين بها على لحظات السأم والقنوط
التي تعترض حياة أى انسان . . وانشدها لنفسى حين يتكثف الهم في صدرى . . .
واستيعدها صامتا في ذهنى في أيام المحن والشدائد .

فتجارب الحياة قد علمتنا منذ زمن طويل انه لا شئ يتجمد في موقعه الى
الأبد . . وان الفُلك دائما دوار يحمل الجديد والغريب كل حين ، وانه بغير التطلع
دائما الى الغد بقلب يرجو رحمة ربه ويحقق دائما بالأمل لا يستطيع أحد أن يتحمل
الحياة أو يحقق أهدافها فيها الآن أو غدا أو في أى وقت . . لأن السأم عدو السعادة
ولأن الإحباط واليأس أعدى أعداء الانسان ولأنه اذا ثبت المرء عينيه على أوضاعه
وتصور انها سوف تستمر بنفس ظروفها الى ما لا نهاية لما غادر فراشه . . ولما
شارك في مباراة الحياة بحماس الراضين في الفوز وفي تحقيق الاحلام .

والزعيم الافريقي نلسون مانديلا مثلا أمضى وراء الأسوار ٢٨ عاما افترق
خلالها عن زوجته وابنته التي تركها طفلة وليدة ، وكانت حكومة جنوب افريقيا

تؤكد كل يوم أن الافراج عنه مستحيل إلى أن يموت في سجنه وأن دونه «خرط القتاد» كما يقولون والقتاد بالمناسبة نبات صلب جدا له شوك كالإبر يستخرج منه اجود أنواع الصمغ ومن المستحيل خرقه بالسكين! ، ولو صدق ما قيل له أو صدقت ذلك زوجته وابنته لوفروا جهدهما ومساعدتهم لكنهم لم يفعلوا ولم يتسلل اليأس الى نفوسهما وواصلوا حملاتهم ونداءاتهم فتحققت المعجزة ورفعت الحكومة الافريقية الراية البيضاء وغادر العملاق سجنه شابا فوق الستين وواصل كفاحه كأن لم تعترضه محنة سجن استمرت ٢٨ عاما فقط لا غير .

والطبيب الألماني البرت شفايتزر غادر بلده شابا واختار ان يعيش في مجاهل افريقيا في اوائل القرن الحالى في قرية لا ماء نظيفا بها ولا كهرباء ولا شيء فيها من مباحج الحياة في اوروبا ، فاعتبرته اسرته فاشلا ضحى بفرصته في أن يصبح طبيا معروفا يجمع ثروة في بلده كما يفعل زملاؤه ، وامضى الطبيب الألماني سنوات عمره يعالج مرضى الجذام وهو مرض جلدى كان يثير الرعب في نفوس الأطباء خوفا من العدوى ، وأنشأ في قرية لامباردينى بالكونغو مستشفى بدائيا لعلاج الجذام . . وسقط اسمه من ذاكرة الأصدقاء والمعارف والأوساط الطبية . . وليس مستبعدا أن يكون الندم قد ساوره في بعض الأحيان على ذلك لكن العمل الصالح لا يضيع سدى ، فبينما كان يعيش حياته البسيطة ويكتب من حين الى حين مقالا يبعث به الى الصحف الاوروبية عن الأحوال في افريقيا وجد نفسه فجأة محط الانظار في بلده وفي العالم كله فالرحالة يأتون اليه في مستشفاه البعيد والصحفيون يسعون اليه في مستشفاه البعيد والصحفيون يسعون اليه ويسجلون آراءه . . وكليات الطب تدعوه للمحاضرة فيها ويذهب هو الى اوروبا ليلقى المحاضرات وينشر الكتب والمقالات ويعزف الاورج في الحفلات ليجمع التبرعات لمستشفاه فيفاجأ النقاد الفنيون بمستوى عزفه ويعتبرونه واحدا من أبرع عازفي الأورج في العالم ويرضى عن نفسه لذلك ويتصور أنه قد نال كل ما حلم به . . لكن الحياة تهديه هدية أخرى لم ينتظرها هي جائزة نوبل فيسعد بتقدير العالم له ويعيش أجمل

أيام حياته الى أن يرحل عن الدنيا عن ٨٣ عاما في سنة ١٩٦٥ .
 والفيلسوف الألماني شوبنهاور ظل ٤٠ سنة يكتب ويؤلف ولا أحد يحس به أو
 يوليه بعض ما يستحقه من تقدير واهتمام حتى بعد أن أصدر الجزء الأول من مجلده
 الضخم «العالم ارادة وفكر» فكان يمضى أيامه وحيدا صامتا لا ينطق أحيانا بحرف
 واحد لمدة اسابيع . . ثم تولاه اليأس من أن ينال ما يستحق من تقدير علمي
 فتوقف عن الكتابة ١٧ سنة متصلة لم يكن يفعل خلالها شيئا سوى القراءة وتناول
 وجبات الطعام في المطعم والتحديث صامتا بالساعات في تمثال بوذا الذي يضعه
 أمامه على المكتب ثم استعاد حيويته فجأة ونشر مقالا فلسفيا ثم أصدر الجزء الثاني
 من مجلده فاذا بالباحثين من كل الانحاء يطرقون بابه واذا بالدعوات تنهال عليه من
 الجامعات الاوروبية واذا بالاوساط العلمية تلتفت اليه وتضع على رأسه أكاليل
 المجد . . واذا بالشهرة تفاجئه وهو يقترب من سن السبعين وهو يرقب كل ذلك
 متعجبا ويقول : بعد ان عشت حياتي وحيدا منسيا جاءوا فجأة ليودعوني الى
 قبري بالهتاف والتهليل !

وقد يكون ما قاله صحيحا . . لكنه صحيح أيضا أن أجمل أيام حياته قد جاءت
 هو أيضا وإن كانت متأخرة بعض الشيء !

والحق أن الإنسان يحتاج دائما إلى أن يجدد حياته من حين إلى آخر باشعال شمعة
 جديدة من شموع الأمل في حياته كلما ذابت شموعه الأولى وبالسعى دائما وراء
 هدف مشروع لا يتخلى عنه . . وبالا يستسلم للاحباط مهما كانت البدايات غير
 مبشرة ومهما عرقلت الصعوبات والعثرات طريقه فكل الذين حققوا نجاحهم في
 الحياة قد فعلوا ذلك . ولم يقولوا أبدا ضاع العمر يا ولدي ولم يعد هناك وقت لكي
 نبدأ من جديد أو لكي نتحقق الآمال التي طال انتظارنا لها . . فالإنسان قادر دائما
 على ان يكتسب مهارات جديدة في أى مرحلة من العمر يستعين بها على مقاومة
 السأم واليأس والقنوط . . فالامام محمد عبده مثلا عاد لمصر من المنفى وعين
 قاضيا بالمحاكم فوجد نفسه بين قضاة يجيدون الفرنسية ويتفخرون بقراءاتهم في

القانون الفرنسي وشروحه فلم يرض لنفسه ان يكون أقل منهم رغم انه كان قد
يش من تعلم الفرنسية خلال اقامته بباريس مع استاذة جمال الأفغانى ولم يقل
لنفسه لقد حاولت وفشلت وانما استدعى معلما لتعليمه الفرنسية وسهر الليالى
يحفظ قواعدها وتعبيراتها وخلال فترة قصيرة اجادها وأصبح يسافر كل سنة في
الصيف الى جنيف وباريس ليستمع الى المحاضرات العامة في جامعتيهما .

وسعد زغلول زعيم الأمة في ثورة ١٩ قد فعل شيئا شبيها بذلك فلقد كان
قاضيا وزوجا وصهرا لرئيس وزراء مصر ولم يكن من الحاصلين على شهادة
الحقوق فرأى انه لا يليق به ان يكون كذلك فدرس الحقوق بالفرنسية في بيته وكان
يسافر كل سنة ليؤدى الامتحان في السوربون حتى حصل على شهادتها واكسبه
ذلك صلاية جديدة .

ولماذا نذهب بعيدا واستاذنا نجيب محفوظ نفسه كان لطبع فيه يرضى بكل ما
تحمله له الحياة يتصور انه قد نال كل ما يريده لنفسه من مجد ادبي وربما لم يكن
يُقدر عليه صفاءه سوى أن بعض الدول العربية كانت تفرض المقاطعة على كتبه
منذ توقيع اتفاق كامب ديفيد فاذا بالتاريخ يحمل له إنصافاً كان يستحقه بكل تأكيد
ولم يكن يتوقعه وإذا به يصبح فخر تلك الدول التي كانت تقاطعه قبل قليل !

ولو كان أحد شباب أوروبا الشرقية مثلاً قد حلم منذ ٧ سنوات فقط بأن
الشيوعية ستسقط في بلده وسيصبح من حقه السفر بحرية الى الخارج ليتزوج مثلاً
فتاته التي احبها خلال سفره مع فريق رياضي الى باريس او لندن لاتهمم البعض
بالجنون . . لكن ما كان جنونا قد أصبح حقيقة بعد سنوات قليلة لأنه كما قال
صادقا الفيلسوف الإغريقي : كل شيء يتغير في الحياة الا قانون التغير نفسه ! ولو
تخيلت نادبة كومانشى بطلة رومانيا في الجحماز التي قامت بمخاطرة لتهرب من
بلادها لتتزوج حبيبها في امريكا أن الشيوعية سوف تسقط في بلادها بعد هربها
بعامين فقط وسيصبح من حقها ان تهاجر وتتزوج من اجنبي بلا مخاطر
لعرضتها اسرتها على الفور على طبيب نفسى . .

والأمثلة كثيرة ودرسها الأول هو ان الطرق المسدودة لن تبقى مسدودة أمامنا الى النهاية . . ولا بد ان يحصل كل انسان على ما يستحقه من نجاح ومن سعادة ومن توفيق . وان الانصاف سوف يجيء في موعده . . او متأخرا . . في الدنيا أو في الآخرة ، لكنه لا بد ان يجيء لكل من بذل العرق وتسليح بالارادة والكفاح وعمل صالحا يرضاه ربه وسعى الى اهدافه بالوسائل المشروعة واحترم فكرة الحياة فلم يؤذ أحدا ولم يدمر حياة احد . . فان شكوت يا صديقي من زحام الطريق الى الأهداف ومن الملل وطول الانتظار فردد معي كلمات ناظم حكمت ولا تفقد الثقة لحظة واحدة في احقيتك ان تنال حظك العادل من السعادة والنجاح . وان اشتد الظلام حولك فردد معي مناجاة شاعر الهند العظيم طاغور لربه : رب امنحنى القوة لكى أصبر على الأتراح والأفراح رب امنحنى القوة لاسمو بروحى فوق توافه الحياة !

. . وأضف اليها من «انشائي» انا : رب سوف افعل كل ذلك لأنى مؤمن بك وبعذلك وبإنصافك . . ولانى من ناحية اخرى لست «فاضيا» لمثل هذه التوافه . . فأنا أعمل وأكافح وأنتظر صابراً وواثقاً . . اجمل أيام الحياة . .

أنت أنت الزعيم؟

هل تريد أن تصبح زعيماً ؟

تستطيع أن تكون كذلك بغير حاجة لأن تكون رئيس دولة ديمقراطية وصل إلى منصبه بعد ماضٍ حافل ومعارك انتخابية ومنافسات مريرة . وتستطيع أن تكون كذلك بغير أن تكون أيضاً دكتاتوراً صغيراً قفز إلى الحكم بإنقلاب عسكري أو ركب دبابة في الفجر وحاصر بها قصر الرئاسة حتى استسلم الرئيس المخلوع أو قتل تحت الانقاض !

بل وتستطيع أن تكون كذلك بغير حاجة لأن تكون «فائد طايبة» ولا رئيساً لمجموعة من الشركات ولا مديراً مهيباً ترتج الأرض تحت أقدامه حين يدخل إلى مكتبه !

ذلك ان كل إنسان مهما كان شأنه يستطيع أن يكون زعيماً مهيباً ومحبوباً في نفس الوقت اذا فعل ما يطالبه به الشاعر الانجليزي رديارد كبلنج صاحب العبارة الشهيرة «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا» ، حين يقول :

«احتفظ بثباتك في الوقت الذي يفقد فيه الآخرون ثباتهم» !

ففى هذه الحالة تكون اقواهم وأكثرهم تحكماً فى الموقف وأكثرهم امتلاكاً لخاصية الأمور فتصبح الزعيم والآخرون أتباعاً مهما علا شأنهم . ولهذا السبب نفسه قال الفيلسوف الاغريقي زينون حين سئل أى الملوك أفضل . . . ملك الفرس أم ملك اليونان ؟ فأجاب بهدوء : من ملك شهوته وغضبه !

وهذا صحيح . . فمن يملك نفسه يستطيع ان يملك الآخرين وان يحقق

أهدافه في الحياة والا يسمح لأية عوامل خارجية باعتراض طريقه وإفساد سلامه النفس وسعادته الخاصة !

والدليل هو صاحب النصيحة الهامة نفسه الشاعر كبلنج . . فلقد حافظ على ثباته معظم سنوات حياته ثم فقدته مرة وانساق وراء انفعالاته فتورط في نزاع قانوني مع شقيق زوجته افسد عليه حياته ودفع ثمنه غاليا من سمعته وراحة اعصابه واضطر لمغادرة امريكا مع زوجته هربا من آثاره !

وهكذا اثبت صدق نصيحته مرتين . . . مرة بالالتزام بها . . . ومرة بمخالفتها وكانت النتيجة في كلتا الحالتين مؤكدة !

ومن يجيد التحكم في نفسه وكبح اهوائه وشهواته وغرائزه وانفعالاته يرشح نفسه بقوة للزعامة في دولته الخاصة . . ويكسب الأصدقاء والأنصار بسهولة . . . ويستمتع بأكبر ما يستحق انسان ان يفخر به وهو حب الآخرين واحترامهم له واعتزازهم به وتهللهم لرؤيته وصحبته بدلا من النفور منه والاسراع بالهرب منه اذا اقبل عليهم مهما كان خطير الشأن وثريا ومشهورا ، فالنفس البشرية تنفر تلقائيا من الغلظة والسجاجة والعدوانية والظلم . . وهذه كلها من صفات العاجز عن ان يتحكم في نفسه وانفعالاته ، كما انها غالبا من صفات الانسان الظالم الذي لا يلتزم غالبا بالعدل والقيم الاخلاقية في حياته . .

ولا قيمة للمنصب الخطير ولا للمال والشهرة في حب الآخرين لك فقد تكون انسانا بسيطاً لكنك تحرص على ألا تغتصب حق غيرك والا تؤذى مشاعر أحد وتجاهلهم ولا تتوانى عن خدمتهم ان استطعت وتلتزم بالعدل والقيم في حياتك . . فتفوز بحبهم ورضائهم أو تنجو على الأقل من كراهيتهم وانتقادهم ونفورهم .

وقد تكون ثريا كجون د . روكفلر مؤسس الامبراطورية المالية لعائلة روكفلر الأمريكية وقد كان «وغدا» بكل معنى الكلمة فحطم في طريقه لجمع ثروته الخرافية الكثيرين ولم يتورع عن تدمير حتى اقرب الناس اليه اذا اعترضوا طريقه . فجمع

المال وكراهية الناس في وقت واحد ثم جلس على عرش امبراطوريته وحيدا مكروها . . . وخطر له ان يكلف احدى الصحف التابعة له باجراء استفتاء لمعرفة من هو اكثر الأشخاص المكروهين في امريكا في ذلك العام (عام ١٩١٢) فجاء اسمه في المقدمة وقبل سفاح شهير كان قد قتل واغتصب ست فتيات في بضعة شهور ! وزعم روكفلر انه حزن لهذه النتيجة واراد ان يكفر عن جرائمه فبنى كنيسة جديدة في كليفلاند وراح يلقي فيها بنفسه موعظة الأحد لكن أحداً لم يدخل كنيسته بل وكان بعض المارة ينتقلون الى الرصيف الآخر لكيلا يعبروا أمامها فلا يسمع موعظته راغمين إلا بعض موظفيه !

ولم يكن ذلك هو عقابه الوحيد من الحياة فقد أرسل إليه شقيقه الأصغر فرانك يبلغه أنه سوف ينقل رفات أطفال له ماتوا من مقبرة الأسرة الى مقبرة جديدة لأنه لا يريد أن تبقى رفات أولاده في أرض يملكها رجل ظالم مثل شقيقه ! فماذا تساوى حيثئذ كل ملايين الأرض ؟

هذا رجل كان يستطيع أن يكون «زعيمًا» لكنه آثر أن يكون بغيضًا . فاذا أصبحت أنت زعيمًا محمولاً في قلوب من حولك فأنت أغنى منه وأفضل وأكثر فائدة للحياة والمجتمع منه .

وطريقك للزعامة يمهد لك الكاتب الأمريكي رالف امرسون (١٨٠٣ - ١٨٨٢) الذي يطالبك بشدة بذلك قائلا : لنكن بناء وقادة . . . ابنوا عالمكم الخاص ابنوا حياتكم الخاصة !

فكل انسان يبني حياته ويسعى بحماس لتحقيق أهدافه ويلتزم بالقيم والعدل في سعيه إليها هو زعيم صغير ، ورعيته هي نفسه التي أجاد التحكم فيها وفي تطويعها للسير في الطريق الذي يوصله الى أهدافه الشريفة البسيطة في الحياة . . . ورعيته أيضاً هم هؤلاء الذين يتحمل مسئوليتهم المادية والأدبية والنفسية ويحاول أن يقيم العدل بينهم وأن يُعَلِّي المثل العليا في دنياهم وهم هؤلاء الذين يهتم بأمرهم ويهتمون بأمره .

ومن خصائص الزعماء الكبار ألا يهتموا بالصغائر لأن وقتهم مشغول دائماً بجلال الأمور لكن هذه الميزة ليست مقصورة على الرؤساء والملوك والقادة وحدهم وإنما هي أيضاً من خصائص الزعماء الصغار لأن الإنسان الجاد الذي يعرف طريقه إلى أهدافه ويسعى إلى أن يجيأ بسلام مع نفسه ومع الآخرين ينبغي عليه ألا يتوقف طويلاً عند التوافه وألا يسمح لها بأن تفسد عليه علاقاته بالآخرين وصدقاته وأعصابه . ومن أجل ما قرأت في هذا المجال تلك العبارة لفيلسوف اسمه بيركلير يقول فيها «هيا ننهض أيها الإخوان فقد طال جلوسنا فوق التوافه!» ولقد أعجبتني هذه الكلمة كثيراً وألتنى أكثر وتمنيت لو كنت قد تعرفت عليها منذ زمن طويل قبل أن تفسد «التوافه» بعض العلاقات الإنسانية علىّ ، لكن متى تعلم الإنسان الحكمة بغير ثمن باهظ من أيامه وأعصابه وذكرياته الأليمة ! فأنا كغيري من البشر جلست أيضاً طويلاً فوق التوافه وخسرت علاقات إنسانية وأشخاصاً لأسباب قد ينساها الإنسان العاقل بعد أيام وربما بعد ساعات . . . ولو عادت الأيام ما سمحت لتلك التوافه أن تفقدني انساناً أو أن تقطع صلة إنسانية مهما كان نوعها أو درجتها . . . ولكن متى أيضاً أعادت الأيام لخاسر ما أضاعه من بين يديه بتمسكه بالتوافه من الأمور ؟

لهذا فلست مؤهلاً للزحامة . . . لكنني أرحبك أنت لها وأطالبك بأن تستعين عليها بالاستفادة من دروس حياة الحمقى من أمثالنا . . . وأريدك أكثر وأكثر أن تؤمن بما آمن به الكاتب الروسي العظيم تشيكوف حين قال في رسالة لشقيقه الأصغر «إن الإنسان الشريف لا يمكن أن يكون تافه الشأن أبداً مهما كان قدره أو علمه أو بساطته وأنت إنسان شريف إذن فلتحمل لنفسك من الإحترام ما هو جدير بإنسان شريف وينبغي ألا تخلط أبداً بين التواضع الكريم وبين الإحساس بتفاهة الشأن» .

وهذا ما أطلبك به أنا أيضاً يا صديقي . . . فكل إنسان شريف يؤدي واجبه بأمانة ويخدم الحياة بعمله . . . ويلتزم في حياته بالقيم والانصاف والمثل العليا . . .

هو إنسان عظيم الشأن مهما كان قدره . . . وهو زعيم بطبعه لأنه فرض زعامته على نفسه ووجهها إلى الطريق الصحيح .
فاذا عرفت أن تشيكوف قد قال أيضاً : إنه لو فعل كل إنسان ما في وسعه لتجميل رقعة الأرض التي يقف فوقها لصار كوكبنا فتنة للأنظار ! لعرفت إذن أنك تستطيع أن تفعل الكثير لو حاولت أن تجمل المكان الذى تعيش فيه أو تعمل به أو على الأقل ترفع عنه الأذى وتحافظ عليه . .
أما لو استمعت إلى نصائح كل هؤلاء الفلاسفة والكتاب العظام ونفذتها لعرفت أنك أنت . . أنت الزعيم وكلهم . . . ولا مؤاخذه !

هذا .. حسن !

أنت تبحث عن السعادة . . وأنا أيضاً . . فأين نجدها ؟
ان الكتب السماوية تقول لنا : ان السعادة في الايمان وتسليم الأمر لخالق الكون
والرضا بالمقدور وتجنب الشر وفعل الخير . .
وعلم النفس يقول لنا انها في اتزان الشخصية . . والتوازن بين قدرات الانسان
ورغباته وطموحه . .

والماديون يقولون انها في اشباع حاجات الانسان المادية وغرائزه . .
والمرضى يقولون انها في الصحة . . والأصحاء يقولون لو كانت فيها وحدها
لكانت الوحوش أسعد مخلوقات الأرض ، والمغمورون يقولون انها في الشهرة . .
والمشهورون يقولون بحثنا عنها ولم نجدها . . والفاشلون يقولون انها في
النجاح . . والناجحون يقولون ما أبهت الثمن الذي دفعناه من سعادتنا ثمناً
لنجاحنا ، والمحرومون يقولون انها في الثراء . . والأثرياء يقولون ليها كانت
كذلك . . والعزاب يقولون انها في الزواج والأبناء . . والمتزوجون يقولون
مشاكلنا اكبر من احتمالنا !

والفلسفة البوذية تقول لنا اننا لن نجدها في الحياة مصدر الآلام والأحزان . .
ولا سبيل اليها إلا بدخول «النرفانا» أو النعيم الذي لا يدخله إلا من حارب أهواءه
المادية وترك المتع الدنيوية وكل انواع اللذائذ . . والصوفية يقولون لنا انها في
الاتصال الروحي المستمر بالله . . والترفع عن اعراض الدنيا . .

فما هي هذه السعادة التي يطلبها الانسان منذ دب بقدميه على الأرض ؟
ان تعريفات السعادة كثيرة . . لكن اقربها إلى عقل هي انها ذلك الشعور

المتصل بالبهجة والطمأنينة والسرور الذي يرافق الانسان برغم ما قد يعترض مجرى حياته من مشاكل مؤقتة او الام عابرة . فاذا كان هذا هو تعريف السعادة فإن ذلك يعنى ان السعادة ترجع غالباً الى الانسان نفسه وليس الى الظروف المحيطة به ، وان اكبر قدر من السعادة الحقيقية انما ينبع من داخل الانسان وليس من خارجه ، لذلك فقد يستشعر الإنسان السعادة وان كانت ظروفه لا ترشحه لها . . وقد يستشعر الشقاء وان كان كل ما حوله يطالبه بالسعادة . . وربما يكون هذا هو السر في اننا قد نرى أحياناً في اسرة واحدة فرداً قادراً على الابتهاج بكل شيء وسعيداً بيومه ومتفائلاً بغده . . والى جواره شقيقاً له يستشعر الشقاء في كل ما حوله . . بالرغم من أن ظروف الحياة واحدة وقدرات الاثنين متقاربة ، ولم تمتحن الحياة احدهما بتجربة قاسية . . لأن الانسان يستطيع ان يستشعر السعادة اذا رضى عن حياته . . وتمسك بالأمل في غد أفضل . . ويستطيع ان يستشعر الشقاء اذا ثبت عينيه دائماً على «الشيء الناقص» في حياته وتعامى عن الكثير الذى منحه له الحياة او عوضته به عما ينقصه . . هل لاحظت معي ان أكثر الناس فراغاً هم أكثرهم ضيقاً بالحياة وافتقاراً للسعادة ؟ . . هل تعرف السبب ؟ . . أنا أعرفه . . لأن من أكثر أسباب شقاء الإنسان ضيق افقه وكثرة انشغاله بنفسه وتفكيره فيها باستمرار كما لو كانت محاور الكون . . ومن يشكون الفراغ لا يجدون ما ينشغلون به سوى أنفسهم ، وكلما ازداد انشغال احدهم بنفسه رآها جديرة بحياة غير حياته . . ودخل أعلى من دخله . . وصحة أفضل من صحته ومركز اجتماعي أعلى من مركزه . . وزوجة أجمل من زوجته اذا كان متزوجاً ، بل وربما أيضاً بأسرة ارقى من اسرته ، أما اذا انشغل عن نفسه بكثير مما يستحق الانشغال به من أمور الحياة . . فسوف تتسع نظراته للحياة فيرى نفسه فرداً بين أفراد لا حصر لهم . . وكائنا بين بلاتين الكائنات . . يستحق الكثير . . نعم . . ولكن كما يستحقه الآخرون . . ولا عجب في وجود بعض اوجه النقص في حياته ففي حياة الآخرين أيضاً أشياء كثيرة ناقصة . . ولكل انسان من حياته ما يسعده . . ومن همه ما

يشقيه . . لكن الحياة لا بد ان تمضى . . ولا بد للسفينة ان تواصل الابحار مستهدية
ببوصلة الايمان والتفاؤل والرضا بما تقدفها به من حين لآخر أمواج البحر من
ضربات .

وأقل الناس ضيقاً بالحياة هم من يحددون دائماً لأنفسهم أهدافاً قريبة تتناسب
مع قدراتهم وامكانياتهم ويسعون بوسائل شريفة إلى تحقيقها ويستشعرون السعادة
في كفاحهم للوصول إليها . . وكلما حققوا هدفاً رضوا عن أنفسهم وشكروا ربهم
وتببأوا بعد استراحة قصيرة للسعى إلى هدف آخر قريب المثال . . وأفضل من فهم
هذا السر هو الكاتب الايرلندي العظيم برناردشو حين قال :

«اننى اخشى النجاح التام . . ذلك ان معناه هو انتهاء مهمة الانسان في الحياة
تماما كذكر العنكبوت الذى تقتله الأنثى بمجرد نجاحه في أداء مهمته . . لهذا فانى
أفضل الحياة مع وجود هدف أمامى أسعى إليه . . على أن أكون قد حققت كل
أهدافى ونخطيتها وأصبحت ورائى . . ولم يبق لى إلا انتظار الموت» . .

والحماس دائماً يا صديقى قرين النجاح والإحساس بالسعادة ، والخالملون
كالمياه الراكدة لا يعرفون أبداً النجاح ولا يتذوقون طعم السعادة الحقيقية . .
ولكى تضع أقدامك على بداية طريق السعادة لا بد ان تؤمن بأنك انسان خير . .
وبأن الحياة خيرة . . وبأن المصير خير . . وإيمانك بخيرية الذات يتحقق بأن تكون
نياتك خيرة . . وأهدافك شريفة . . ووسائلك إليها لا تتناقض مع مبادئك
ومعتقداتك ، وإيمانك بخيرية الحياة يدفعك للتمسك بها . . ورفض مظاهر الشر
فيها . . واثراء ازهار الخير فيها ، وإيمانك بخيرية المصير وبأن اللجنة للمتقين يدفعك
إلى تجنب الشرور وإلى الاستزادة من رصيد الخير في حياتك طلباً للسعادة في الدنيا
والآخرة . . فاذا آمنت بهذه المبادئ الثلاثة . . فانك ترشح نفسك لنيل السعادة
مهما كانت مشاكلك . . وآلامك . . واذا أردت أن تحتبر نصيبك من السعادة
الحقيقية . . فتوقف لتراجع حياتك الآن . . وتستعرض كل جوانبها . . فاذا
استطعت بعد إنتهاء المراجعة أن تقول كما قال الفيلسوف الألماني «كانت» وهو

يراجع حياته قبيل رحيله : «هذا حسن ا» . . فأنت إنسان سعيد وإذا استطعت أن تقول بعد المراجعة : أحب الحياة والناس . . ولا أشعر بالغربة بينهم . . ولا أشعر بالكآبة إذا انفردت بنفسى . . لا أطلب ثأراً من أحد . . ولا يطلب أحد ثأراً منى . . استقبل يومى كل صباح مستبشراً بيوم جديد وخير متوقع . . وأنام كل ليلة راضياً عن نفسى ويومى وحياتى . . أرى الجمال فى كل شىء ولو لم يكن جميلاً واستمتع بكل شىء ولو كان تافها . . افرح بما يأتينى ولو كان قليلاً . . ولا آسى على شىء فاتنى ولو كان كبيراً ما دمت لم أقصر فى السعى إليه إذ لو كان مقدوراً لى لما فاتنى . . ولو كان مقدوراً لغيرى لما نلتها مهما أجهدت نفسى . . صحتى طيبة . . ورغائى تتحقق بكفاحى . . وما لا يتحقق منها الآن فأمل كبير فى أن يتحقق غداً أو بعد غد . . حياتى لها قيمة ومعنى عند اسرتى وأصدقائى وأحبائى . . وحياتهم لها قيمة ومعنى عندى . . أفيد الآخرين . . وأستفيد منهم . . أساعدهم . . وأقبل شاكراً مساعدهم . . أرى فى كل إنسان جانباً خيراً أستطيع أن أتعامل معه من خلاله . . وأشعر بأنى لست وحيدى فى الحياة . . فخالقى يرعائى ويرقبنى ويشد أزرى وأناجيه فى صفوى وفى كدرى . . إذا استطعت أن تقول كل ذلك أو معظمه . . فأنت إنسان سعيد مهما كانت آلامك . . وأحزانك . . ومشاكل حياتك . .

أما إذا لم تستطع . . فلا تضيع الوقت وواصل البحث معى عن طريق السعادة !! ■

الفهرس

٥	... ولا تتبع خطواتى ا
١٠	روما تيزم الصداقة ا
١٦	اندهش .. يا صديقى ا
٢٠	وانتم ا
٢٥	القفز فوق الحواجز
٣٠	... والقضاء ورائى ا
٣٧	باريس .. الحب .. والعذاب ا
٤٢	نماذج من البشر - ١
٤٦	نماذج من البشر - ٢
٥١	نماذج من البشر - ٣
٥٥	فوق العارضة ا
٦١	واحد من البشر ا
٦٦	دموع .. لا يراها أحد ا
٧٢	مع مرتبة الشرف ا
٧٧	القيثارة ا
٨٥	لم تأت بعد ا
٩٠	أنت ... أنت الزعيم ا
٩٥	هذا .. حسن ا

صدر للمؤلف

١ - أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٨٦ (نقد)
٢ - يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى	١٩٨٧ (نقد)
٣ - هتاف المعذنين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٨٨ (نقد)
٤ - صديقي لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٠ (نقد)
		الطبعة الخامسة	٢٠٠١
٥ - نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٠
		الطبعة الثالثة	١٩٩٦
٦ - العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩١
		الطبعة الرابعة	١٩٩٨
٧ - صديقي ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩١
		الطبعة الرابعة	١٩٩٨
٨ - العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
		الطبعة الخامسة	١٩٩٨
٩ - افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
		الطبعة الثالثة	١٩٩٨
١٠ - اندهش يا صديقي	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
		الطبعة الخامسة	١٩٩٩
١١ - أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الرابعة	١٩٩٩
١٢ - أرجوك لا تفهمني	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الثالثة	١٩٩٨
١٣ - رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الثالثة	١٩٩٨

١٩٩٣	الطبعة الأولى	مقالات وصور أدبية	١٤- وقت السعادة . . وقت البكاء
٢٠٠٠	الطبعة الرابعة		
١٩٩٣	الطبعة الأولى	قصص إنسانية	١٥- شركاء فى الحياة
١٩٩٩	الطبعة الرابعة		
١٩٩٤	الطبعة الأولى	قصص إنسانية رومانسية	١٦- أماكن فى القلب
٢٠٠٠	الطبعة الثانية		
١٩٩٥	الطبعة الأولى	قصص رومانسية	١٧- لا تنسنى
٢٠٠٠	الطبعة الثالثة		
١٩٩٥	الطبعة الأولى	قصص إنسانية	١٨- نهر الدموع
٢٠٠١	الطبعة الثالثة		
١٩٩٦	الطبعة الأولى	قصص إنسانية	١٩- أفنعة الحب السبعة
١٩٩٩	الطبعة الرابعة		
١٩٩٦	الطبعة الأولى	صور أدبية	٢٠- خاتم فى أصبع القلب
١٩٩٩	الطبعة الثالثة		
١٩٩٦	الطبعة الأولى	مقالات	٢١- وحدى مع الآخرين
٢٠٠٠	الطبعة الرابعة		
١٩٩٧	الطبعة الأولى	مقالات وصور أدبية	٢٢- سلامتك من الآه
١٩٩٨	الطبعة الثانية		
١٩٩٧	الطبعة الأولى	قصص إنسانية	٢٣- هو وهى والآخرين
٢٠٠١	الطبعة الثانية		
١٩٩٧	الطبعة الأولى	مقالات وصور أدبية	٢٤- مكتوب على الجبين
٢٠٠٠	الطبعة الثانية		
١٩٩٧	الطبعة الأولى	قصص إنسانية	٢٥- أوراق الليل
٢٠٠٠	الطبعة الثانية		
١٩٩٦	الطبعة الأولى	قصص إنسانية	٢٦- طائر الأحزان
٢٠٠١	الطبعة الثالثة		

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيديويه المصري - ت : ٤٠٢٣٢٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩٠ - ٨١٧٢١٢ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

هَذَا الْكِتَابُ

وكان قد ضايقنا بالانتظار طويلا في ذلك اليوم لينتهى من الحديث مع بعض اقاربه حين جلسنا إلى مائدة الغداء .. وسألنا نفس السؤال التقليدى بنفس الخطأ اللغوى :

● أنا خنزير .. وأنتم بقر ؟!

فوجدت نفسى أجيبه على الفور : لا .. بل أنت خنزير .. ونحن نأكل لحم البقر !

وضحك زميلاي في الوفد وشمْتُ أنا في « بيتريه » الخبيث الذى طوع معظم فقرات برنامجنا لأغراضه العائلية والشخصية ونسى .. حكاية تضامن الشعوب واستقلال ناميبيا في معظم الرحلة !!

فاندعش أنت أيضا يا صديقى لكل ما تراه وتسمعه فالدهشة بداية الطريق للمعرفة .. ووقود الحماس لمعرفة الأشياء وللحياة . والمتقف الحقيقى هو من يعرف أنه لايعرف الكثير ويريد أن يعرف الكثير .. والجاهل هو من لايعرف أنه لايعرف حتى القليل ولا يريد أن يعرف المزيد .

والأخطر منهما هو من كان مثلنا زمان والذى يعرف أقل القليل ويتصور انه يعرف الكثير .. « ويعذب » الآخرين بالقليل الذى يعرفه !.

ورغم كل ذلك فاذا كنت قد شبهت الصداقة الحقيقية بالرومانيزم فليس ذلك لأنها مؤلمة .. وإنما فقط لأنها دائمة ، ولا يهزمها دواء .. ولأنها أيضا كآلامه تظل كامنة تحت السطح حتى يخيل إليك أنك نسيتها ثم « تنقح » عليك فجأة إذا تلقت نفحة من هواء الذكريات لتذكرك بوجودها وقوتها وبأحلى أيام العمر .. وأجمل ذكرياته !